

عبدالقادر القط

شعر

ذكريات تتسباب

عَبْدُ الْقَادِرِ الْفَط

ذِكْرَايَةُ شَبَابٍ

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الغزالة"

دار مصير للطباعة
٣٧ (٩) شارع كاسر مدني - أنقرة - تركيا

مقدمة

كان من حق هذه القصائد أن تنشر منذ خمسة عشر عاماً ،
فقد نظمتها بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٣ . ثم سافرت إلى الخارج قبل أن
يتاح لي نشرها في ديوان كامل ؛ فلما عدت بعد خمس سنين كان قد طرأ
على إدراكي للحياة تحول كبير جعلني أحس بشيء غير قليل من الغربة
نحوما تضمنته قصائدي من عواطف لم أعد قادراً على الشعور بها بمثل ما فيها
من حدة وقوة انفعال . ولكنني مع ذلك لم أفقد رضائي عنها من حيث
تعبيرها ونجاحها في تصوير تلك العواطف الجياشة التي كانت تملأ علي
صباي ، ولم أستطع أن أقطع بيني وبينها تلك الصلة النفسية الوثيقة التي
تقوم دائماً بين الأديب وعمله ، ولا أن أفقد ما أحمل لها من حب ،
وهي جزء عزيز من شبابي بقلقه وحيرته ، ومعجزه وقوته .

وهكذا ظلت فكرة نشرها تراودني من حين إلى آخر فتبلغ بي
الحماسة في بعض الأحيان أن أدفع بأصولها إلى الناشر ، ثم يستبد بي التردد
والإشفاق فأنتهي عما اعتزمت . وقد أكد هذا التردد في نفسي أن لونا
جديداً قد ظهر في الشعر العربي ، فنبذ هذا الإطار الذي كنت أنظم فيه ،
وتلك التجارب الذاتية التي صورتها في شعري القديم وأحدث بهذا ثورة

فنية كبيرة كفت في أول الأمر من أكثر الناس اقتصارا لها ،
وأحسست أنه ينبغي لي أن أتريث حتى أرى ما يكون من أمر هذا
المذهب الجديد ، وحتى لا يكون هناك شيء من التناقض بين نشرى
لقصائدى القديمة وبين حماسى للشعر الجديد .

ولكن الشعر الجديد لم يلبث أن تحول — فى معظمه — عن
الطريق الذى كان قد بدأ السير فيه ، فغلبت على أسلوبه نثرية مسرفة ،
وانحاز لنفسه — على حدائته — قوالب يرددها الشعراء فى معظم قصائدهم ،
وطغى على مضمونه جانب الدعاية المباشرة للقضايا السياسية والأحداث
الاجتماعية دون نظر كبير إلى الجانب الفنى ، وخذع كثير من الشعراء
الناشئين بما يبدو فى طريقة نظمه من سهولة ظاهرية ، فأولعوا به وغمروا
الصحف والمجلات بقصائد فجئة قبل أن يكتمل لهم ما ينبغى من ثقافة
لغوية وفنية ونضج فى الفكر والعاطفة . وهكذا أدرك كثير من آزرى
هذا الشعر فى أول الأمر أنه — رغم النماذج الناجحة التى قدمها
الموهوبون المخلصون من أصحابه — لم يزل فى دور التجربة التى قد تنتهى
به إلى مسالك وأشكال جديدة ، أو ترده إلى شيء من القصد والاعتدال .
وبدأ الناس يشكون فى قدرته على أن يخلف الشعر القديم فيصبح اللون
الأوحد فى شعرنا الحديث .

ومع أنى أعتقد أن النماذج الناجحة من هذا الشعر قد أثبتت أنه
يستطيع — حين تتاح له الملكات الكبيرة المخلصة والثقافة اللغوية

والفنية الواعية — أن يكون أداة للتعبير الشعري الصادق العميق ،
فقد بدأت أحس كما أحس غيرى من الناس بأن أمامه طريقا طويلا
شاقا لابد أن يجتازه قبل أن تتأصل مقوماته ، وتنضج أساليبه وصوره ،
ويصبح الإطار الأول لشعرنا الحديث .

لذلك زال ما كان يستبد بى من تردد فى نشر هذا الديوان، وأخذت
أعيد النظر فى أمر الشعر القديم لأرى إن كان حقا — كما يقول أصحاب
المذهب الجديد — عاجزا بطبعه عن أن يخرج تجربة الشاعر فى صورة
متكاملة الأجزاء دون أن يحول بينه وبين ذلك ما فيه من قيود القافية
واتساق الشطور .

وأصحاب المذهب الجديد يأخذون على القصيدة العربية فى أشكالها
التي تخالف شكل مذهبهم ، اعتمادها على وحدة البيت وتفكك أجزائها
وتكلف الشاعر فيها لكثير من الإطناب اللفظى الذى يفرضه عليه
ما للبيت من طول محدد وشطين متساويين . ولا شك أن فى القصيدة
العربية القديمة كثيرا من هذه الصفات التى نراها الآن عيوباً يجب
أن يتنزه عنها الشعر . ولكننا نخطئ حين نظن أن تلك الصفات
فى قصائد كبار الشعراء القدماء خضوع — فى كل حال — لقيود القافية
والوزن ، وعجز من هؤلاء الشعراء عن أن يعبروا عما فى نفوسهم من عواطف
وأفكار تعبيرا دقيقا متكامل الجوانب . فالحق أن مانراه فى قصائدهم
من تلك الصفات إنما هو تعبير صادق عن طريقة إدراكهم لما يعرض

لهم من تجارب ، والصفات التي لا نجها في ذلك الشعر ليست في الحقيقة عيب الشكل القديم في ذاته بقدر ما هي تصوير لطريقة إدراك خاصة تختلف عن طريقة إدراكنا الحديثة للحياة والأشياء .

وقد أوردت الآنسة « نازك الملائكة » في مقدمتها القيمة لديوانها « شظايا ورماد » بيت المتنبي :

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه

حريصا عليها ، مستهماً بها صبا

وأبانت ما تكلفه الشاعر في رأيها لكي يتم للبيت ما ينبغي له من طول محدد وقافية خاصة ، فقالت إن المعنى يتم عند قوله « حريصا عليها » أما قوله « مستهماً بها صبا » فليس إلا تكملة للوزن ووصولاً إلى القافية . وما أظن أن المتنبي قد أحس بأنه تكلف شيئاً من هذا ؛ وإنما عبر تعبيراً صادقاً عن إحساسه بفكرته بالطريقة التي كانت تقتضيه الروح العصر وطبيعة الحياة وأسلوب الناس حينذاك في إدراك الأشياء والتعبير عنها . وليس ما في البيت من إطناب إلا انعكاساً لما كان في حياة هؤلاء الناس من فراغ ، وما كان في إحساسهم من حدة ، وما كان في طريقة معيشتهم وما كلهم وملبسهم وعمارته من زخرف و « إطناب » . وما نأخذه الآن على القصيدة القديمة من تفكك أجزائها واعتمادها على وحدة البيت ليس بدوره إلا انعكاساً لطريقة القدماء في إدراك الأشياء إدراكاً

جزئيا ليس فيه هذه النظرة الكلية الشاملة التي تطبع تفكيرنا وإحساسنا في العصر الحديث .

وإذا كان الإطار القديم ليس عاجزا بطبعه عن أن يصوّر تجارب الشاعر تصويرا ناجحا ، فليس ما يمنع إذن من أن يستخدمه الشاعر الحديث في شكله المتطور الذى يناسب حياة الشاعر وطبيعة اللغة في عصره . ولا شك أن الشكل القديم قد تطور تطورا كبيرا على يد الشعراء المحدثين ، فانتفت عنه الألفاظ الغريبة والصور التقليدية ، وأصبحت آياته أكثر تماسكا واتحادا . وقد تجاوز الشعراء — كما هو معروف — هذا الشكل التقليدى المحض إلى القصيدة التى تعتمد على وحدة المقطوعة والقافية المتغيرة ، فأتى للشاعر مجال أرحب للتعبير عن تجربته ، وقلت القيود التى تحد من قدرته على الإبداع ، واستطاع كثير من الشعراء أن يأتوا فى هذا الإطار بروائع يعتز بها أدبنا الحديث .

لذلك أعتقد أننا لا ينبغي أن نرفض بعض شعرنا المعاصر لمجرد أنه قد نظم فى أشكال تخالف « الشعر الجديد » ، بل لا بد أن نحكم عليه بمقدار ما فى مضمونه من قيم ، وما فى صياغته من فن ، وأن نقرأ بما يجب لقراءة كل شعر من حسن الظن والاستعداد النفسى الطيب لتلقى ما يريد الشاعر أن ينقله إلينا من عواطف وأفكار . صحيح إن بعض شعرائنا المعاصرين ممن ينظمون فى هذا الإطار القديم لا يزالون يتبعون الطريقة التقليدية المحضة بكل مقوماتها دون اعتبار لما طرأ على اللغة وأساليب

الشعور والتفكير من تطوّر كبير ، ولكن ذلك لا يجوز أن يصرفنا عما قد يكون في شعر غيرهم من أعمال جميلة ناجحة تمثل روح العصر وطبيعة الشاعر في أسلوب حي جديد . ولست أزعج أن شعري من هذا الطراز ، ولكنني أضعه أمام القارئ ليرى فيه رأيه وإن كنت أستطيع أن أقول إنني التزمت فيه غاية الصدق في التعبير عما كنت أحس به حينذاك . وأذكر في هذا المقام أني حين قلت في قصيدة « رؤيا » :

قد بكيْنَا وأَمِنَا أن نرى
والأَمْسَى في وحشة الظلماء يخلو
دمعة في الليل ما أروغها
تتلوى مثلاً ينساب صِلْ
مثل لدع النار قرّت في في
ولها في وجهي المحرور غِلْ

طاف بخاطري ما يزخر به الشعر التقليدي من إغراق في الحديث عن الدموع والبكاء ، فأشفقت أن يؤخذ قولي على أنه مجرد اتباع لتلك السنة المألوفة ، وأحسست بضرورة الاعتذار عن هذا الانفعال العنيف فأتبعت الأبيات السابقة بهذين البيتين :

لا تخلّها بهرجا من شاعر
يملاً القول من الزيف ويخلو

فلقد تعلم يا طيفي أني ما ذكرت اللمع في شعري قبل

وقد يظن بعض القراء أن هذا الدفاع عن الأشكال التقليدية لا ضرورة له ، لأن أحدا لا يرفضها كل الرفض ، أو يقول بأنها لم تعد صالحة للبقاء إلى جانب « الشعر الجديد » . لكن الحقيقة أن كثيرا من شعراء الشكل الجديد وأنصاره يرون هذا الرأي ، كما يعرض معظم الناشئين عن القوالب القديمة مسaire منهم لروح التطور من ناحية ، وفرازا مما تتطلبه تلك القوالب من ثقافة لغوية وفنية واسعة من ناحية أخرى . وهذا الدفاع إذن ليس موجها إلى الذين لا يزالون يؤمنون بصالح تلك الأشكال التقليدية وجمالها ، وإنما قصدت به أن أنبه الناشئين إلى أنه من الخير لهم أن يبدءوا بالطريقة القديمة في أحسن صورها وأكثرها ملاءمة لروح العصر ، ثم يتطوروا بعد ذلك تطورا طبيعيا إلى الشكل الجديد بعد أن تكون قد تهيأت لهم أسباب النجاح فيه . والحق أن النماذج الناجحة من هذا الشعر لا تتأني إلا لمن راض ذوقه اللغوي والفني رياضة طويلة بالقراءة في الشعر العربي القديم والحديث ، وممارسة الأشكال التقليدية بما فيها من قيود تفرض على الشاعر أن يولي فنه كثيرا من الجهد والعناية ، وتكسبه القدرة على أن يسيطر على اللغة ويستخدمها بكل ما لها من إمكانيات . وهؤلاء الناشئون في حاجة إلى هذه الثقافة

الفنية الكبيرة ، لأن الفرق بين روح الشعر والنثر في الشكل الجديد خيط دقيق لا يقطن إليه إلا من أوتي الحس المرهف والإدراك السليم لروح اللغة العربية وأساليبها المختلفة . ولست بذلك أدعو إلى أن يظل الشعراء مرتبطين إلى الأبد بهذه الأساليب القديمة ، ولكنى أعتقد أننا لا يمكن أن نقطع صلتنا بها قبل أن يصبح لشعرنا الجديد تراث ناضج ضخم يستطيع الناشئ أن يصقل به ملكاته ، ويستمد منه وينبى على أساسه .

هذا من حيث شكل الديوان ؛ أما مضمونه فيدور معظمه حول تجارب عاطفية بما يعرض لكل شاب في مطلع صباه . وهي تجارب يغلب عليها الشعور بالحيرة بين مثالية الشباب وواقع الحياة ، وتنسم بكثير من الإحساس الحاد بالحرمان والتفكير القلق في المستقبل .

وقد قامت في مجتمعا من الظروف والمشكلات منذ أن نظمت هذه القصائد ما تطور بالشعر العربي والأدب عامة إلى الواقعية ، وأصبح الأدباء الواقعيون لا يرضون كثيرا عن الشعر الذاتي الذي يتحدث فيه الشاعر عن عواطفه الخاصة بصورة لا ترتبط فيها بمجذورها الاجتماعية ومظاهرها الإنسانية الشاملة . ولا شك أن هؤلاء الأدباء على جانب كبير من الحق في موقفهم من الشعر الذاتي ، ولكنهم مع ذلك يظلون كثيرا من هذا الشعر حين لا يرون في تصويره الحاد لعاطفة الحب

إلا تعبيراً عن أحاسيس فردية خالصة لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلات المجتمع . فالحق أن الشعراء الرومانسيين في تعبيرهم عما يلقون في الحب من أسى وقلق وحيرة لا يصوّرون مجرد شعور فردى محض في موضوع عاطفى واحد ، وإنما يعبرون عن موقفهم من الحياة والمجتمع بوجه عام ويتخذون من المرأة مرآة يعكسون عليها ما يشعرون به من الضياع والفشل في مجتمع لم يبلغ من التقدم حداً يتيح لهم أن يحققوا ما يراود نفوسهم المتطلعة من طموح ، ويمنح إحساسهم للرّهف ما يتهى به إلى الشعور بالطمأنينة والرضى . وهم يتخذون من الحب وسيلة إلى هذا التعبير ، لأنه تجربة حيوية تصادف كل إنسان على نحو غريزى ملتح ، وتتلور فيه معظم القيم الأخلاقية والاقتصادية والاجتماعية في حياة الناس . ولو لم يكن الأمر كذلك لما أمكن مثلاً أن نفسر إصرار شاعر مثل ناجى على المضيّ حتى آخر حياته في مذهبه الرومانسى ، وشعوره المسرف في العاطفة ، بما فيه من تقديس للمرأة غير طبيعى عند من كان في مثل سنه وظروفه الاجتماعية التى كان لا بد أن تهىّ له كثيراً من الاكتفاء العاطفى في هذه الناحية .

وسيرى قارئ هذا الديوان أن موقف الشاعر من الحياة بوجه عام يشيع في معظم قصائده حتى ما كان منها في الظاهر خالصاً لعاطفة الحب . فهو يبدأ بقصيدة عنوانها « قلق » تصور حيرة الشاعر أمام مسالك الحياة المتشعبة وإحساسه بما يدور في نفسه من عواطف وآمال مختلطة مضطربة

لا يدرى طبيعتها على وجه التحديد ، ولا يعرف كيف يكون السبيل
إلى تحقيقها . والشاعر مشغول بأمر المستقبل ، تارة يراه شيئا مجهولا
مطويا في ثنايا الضيق يعثقه ويخشاه فيقول :

أسدلتُ في محرابه الحُجبا
وسما به ما شاء حرمانى
وعشقت خلف ستوره الغيا
ولمحت عند علاه سلطانى

ويعبر مرة أخرى عن ارتباط موقفه من الحب بموقفه من الحياة
تعبيرا صريحا فيقول :

تسامى وتبهى واخطرى فى غمامة
من الوهم أن يقلع دجاها تبدي
فما عشقتك النفس إلا علالة
عن الأمل للنشود فى ظلمة الغد
وما العيش إلا خفقة قدسية
لطلعة مُشَقِّقٍ أو لمقدم مُسَمِّدٍ

ويقول مرة ثالثة :

قد تركنا اليوم للضمِّ العُتاه
وتركنا الغد للغيب الضنين

وتشبهنا بماضينا فتاه

في ضباب من عذاب وشجون

مرة رابعة يقول :

كل ما قد مضى فللعدم الطاغى

يزجى وغيننا أسرارُ

وقصارانا بين ماض وآت

خلسات من الحياة قصارُ

وتارة تغلب عليه روح التفاؤل والإيمان بالمستقبل ، وبقدرة الشباب

على أن يصنع مستقبله بيده كما يشاء فيقول :

يا فتنتى لا ترهبى الغيب الخبيء ولا دجاء

هو صنع أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه

غرس من الأفراح والأتراح والسلوى ثراه

نلقى به فى يومنا ونذوق من غدنا جناه

تهب الحياة لنا غداً من مثل ما نهب الحياة

ومن خلال حديث الشاعر عن الحب يفيض إلى الشك فى كثير

من القيم الاجتماعية التى تحول دون أن يحقق ما يراوده من طموح

ورغبة ملحة فى السعادة والاستمتاع بالحياة . وسيبرى القارى شيئاً من

هذا فى قصيدة « هم الناس » التى يصور الشاعر فيها توزيعه بين ما خلقه

الناس في نفسه من ضمير هو خلاصة القيم الاجتماعية والأخلاقية، وبين
نزعتة إلى التحرر والانطلاق فيقول :

توهمت أنى قد خلصت من الورى
فإذا بهم مما تجنّ السرائرُ
إذا قلت غابوا عن عياني تراحوا
على من الجرح العميق وبادروا
وزفة على قلبي الملوغ ضجيجهم
وقهقه صوت من ضميرى ساخر
أريد وصوت الناس فيّ يريدنى
على غير ما أهوى فكيف أداور ؟
تحيّرت يا ليلى لا العقل قادر
فيسحق أهوائى ولا القلب قادر

وقد عبرت عن هذا الإحساس بعد ذلك على نحو أوضح في قصيدة
« انطلاق » واتخذت من الراعى رمزاً للضمير الذى يلح على الشاعر
أن يخضع لما تعارف الناس عليه من أوضاع ، ورمزت بالشاة إلى نفس
الشاعر الثائرة فى رغبتها أن تكسر كل ما يكبلها من أغلال . وقد
أفصحّت عن هذا الرمز فى آخر مقطوعة من القصيدة فقلت عن تجربة
الشاة مع السيل ، سيل الحياة :

خاضت إليه وزاحت بقوى موثقه قواه
القاع يجذبها قهوى ثم تنشلها ذراه
في القاع إحساس وفوق الماء إحساس سواه
بوركت يا سيل الحياة جريت في عنف الحياه !

وقد نظمت هذه القصائد في أواسط الحرب العالمية الثانية حين
كانت جنود الحلفاء تملأ القاهرة ، والسياسة المصرية تتعثر بين مملأة
الانجليز وتملق الأمانى الوطنية ، والحرب تلقى ظلالها السود على الحياة
وتثير في نفوس الناس كثيراً من الشكوك حول مستقبل الانسانية ،
والغلاء الذى لا عهد لمصر بمثله يثقل كواهل الشباب ويسد الطريق
أمام طموحهم ، فكان من الطبيعى في تلك الظروف القاسية أن يحس
الشاعر وأمثاله بالقلق والحيرة ، ويشغلوا أنفسهم بأمر المستقبل ،
ويتذذبذبوا إزاءه بين اليأس والرجاء ، وبين التفاؤل والتشاؤم . ولم تكن
مشكلات المجتمع قد اتضحت بعد لهؤلاء الشباب على نحو يخلق عندهم
وعياً ناضجاً بها ، ويرسم لهم الطريق إلى حلها أو التغلب عليها ، كما كان
تسلط المستعمر والطبقة الحاكمة يحول دون أن يقوم في نفوس الأدباء
من الشباب مثل هذا الوعى الذى يمكن أن يتجه بأديهم دفعة واحدة
إلى الواقعية الصريحة . وهكذا اتخذ الشعراء الرومانسيون من الحب ، كما
قلت ، موضوعاً يعكسون عليه موقفهم من الحياة والمجتمع وإن لم يفعلوا
ذلك بالطبع عن إرادة واعية ، بل بصورة تلقائية وجدانية .

على أن بنور التطور الاجتماعى والسياسى الضخم الذى طرأ على المجتمع العربى بعد الحرب كانت تفتح حينذاك فى نفوس هؤلاء الشعراء من 'حين إلى آخر فى ومضات شعرية فيها كثير من الإدراك الاجتماعى والسياسى السليم . وسيرى القارىء فى قصيدة « لن أنام » مثالا لهذا اللون الواقعى ، فيه دعوة إلى الكفاح ، وإيمان بانتصار الشعب فى صراعه ليحقق لنفسه حياة حرة كريمة .

ومن مظاهر الوعى الواقعى فى هذا الديوان أن الشاعر قد ضاق فى نهايته بأحلامه الرومانسية للهومة ، وبما يحس به من عجز وحيرة أمام مشكلات الحياة ، وصوّر ذلك كله فى قصيدة عنوانها « وماذا بعد ؟ » جاء فى بعض مقطوعاتها ما يمكن أن يعد ثورة على المفهوم السائد حينذاك لطبيعة الشاعر كما فى قوله مثلا :

شباب تائه حائر

يوارى جده العائر

ويهتف : هكذا الشاعر

فليت الشعر يهجرنا

وليت الفن يحفونا

وقوله :

كفى يا قلب إغفالا

فهذا العجز قد طالا

ولسنا بعد أطفالا

وما تجدى رؤى الحالم

لذى ست وعشرينا

على أننا لا ينبغي مع ذلك أن نضيق بما قد يكون في بعض إنتاجنا
الشعري من ذاتية ونعدها انفصالا عن واقع الحياة ومشكلات المجتمع ،
فإن العنصر الذاتى شيء ضرورى لكل شعر حتى ما كان منه بعيداً
في ظاهره عن شخصية الشاعر وتجاربه الخاصة . فعلى الشاعر دائماً أن
ينمى شخصيته ويروض إحساسه الذاتى على إدراك الحياة من حوله
بطريقته التى تميزه عن غيره من الشعراء ، وتضفى على شعره أصالة لا غنى
عنها لكل فن كبير . ولن يتأتى له ذلك إلا إذا تدرج من التجربة الذاتية
إلى التجارب العامة ، وحرض حتى في تصويره للموضوعات التى لا تتصل
بنفسه اتصالاً مباشراً . على أن يلونها بلونه الخاص الذى يدل على كيان
إنسانى مستقل . ولست أعنى بذلك أن يعتمد الشاعر مخالفة الآخرين
في معتقداتهم وعواطفهم ، ولكنى أريد له أن ينتهى إلى ما يؤمن به
من آراء من خلال اقتناعه الشخصى ، لا انسياقاً وراء ما قد يشيع في بيئته
من مذاهب اجتماعية أو فنية . ولا شك أنه إذا كان شاعراً ذا بصيرة
صادقة ووعى اجتماعى سيتفق في نظرته مع كثير غيره من أحرار الشعراء ،

ولكنه مع ذلك سيتناول موضوعاته من زوايا ووجهات نظر خاصة به ، فلا ينجىء شعره مجرد شعارات مذهبية أو ترديدا لقوالب فنية مبتذلة . ومن الملحوظ أن معظم « الشعر الجديد » لا يحرص كثيراً على هذا الجانب الذاتى ، بل يظن أصحابه أن عليهم جميعاً واجباً محتوماً أن يعبروا عن كل مناسبة سياسية أو اجتماعية تعرض فى مجتمعهم ولو كانت بعيدة عن اهتمام بعضهم أو مستعصية على اتجاهاتهم الفنية . ولعل ذلك هو سر تلك القوالب المكررة التى اتخذها الشعر الجديد على أحداثه ، وسر ما يفتقده القارئ من شخصية معظم هؤلاء الشعراء فيما يقرأ من أشعارهم فلا يكاد يتعرف على شاعر من طريقة نظرته الخاصة للأمور أو أسلوبه العروف فى التعبير عنها . ولو أخلص هؤلاء الشعراء لأنفسهم لجاء شعرهم مصوراً لكل مظاهر يبتتهم ومشكلاتها على نحو متكامل لا تستأثر فيه المناسبات بملكاتهم جميعاً ؛ ولن تعدم الموضوعات الاجتماعية والسياسية الكبيرة فى هذه الحالة من يعالجها من الشعراء بطبيعة استعدادهم الشخصى وميولهم الخاصة . فليس من ضير أن يكون فى بعض إنتاجنا من حين إلى آخر بعض الألوان العاطفية والنظرات الذاتية ما دام هذا الإنتاج فى مجموعه متكاملاً فى تناوله لجوانب الحياة المختلفة فى المجتمع الذى نعيش فيه . وعلينا أن ندرك أن لكل شاعر قدراته النفسية والفنية المتميزة التى تصرفه إلى الاهتمام بما يتناسب معها

من تجارب وموضوعات ، فلا نبني حكماً مثلاً على شاعر عاطفي بمقدار إجماله للشكالات الاجتماعية الكبيرة أو التفاته إليها إلا إذا أردنا أن نقيسه بغيره من الشعراء من حيث وضعهم العام . أما في قراءة شعره العاطفي فينبغي أن نحكم عليه بحسب توفيقه أو فشله في هذه الناحية وحدها ، فلا نحاسبه على ما لم يكتب ، بل على ما كتب .

وكنت قد نشرت قصيدة « انطلاق » في مجلة الآداب البيروتية ، وحدث أن علق الأستاذ محمود العالم في العدد التالي على ما نشر في ذلك العدد من شعر فقال عن تلك القصيدة :

« إن الخاصية العامة لشعر الدكتور القط أنه من حيث المضمون فاقد لهدف محدد وإن كشف عن جهد دائب للوضوح والاستقرار . ولكنه سامان ، ملول ، قلق ، متعلق برؤيا بعيدة غائمة يتوقع منها معجزة الخلاص . وهذا مما يشيع في شعره أحيانا مسحة تفاؤلية ولكنها غائمة كذلك . وتعتبر قصيدته « انطلاق » استقطاباً لموقفه الشعري في حدود معرفتي به . ولقد ذكرتني القصيدة أولاً بقصة مشهورة لألفونس دوديه هي « غرة مسيو ساجان » . أما انطلاق الدكتور القط فانطلاق طيب مستسلم ، مندفع نحو أفق ولكنه مطموس المعالم ، غير واضح القيمات . وانطلاقه يحمل جانباً من اللون كيشوتييه ، لأنه لا يستبصر بالأبعاد الموضوعية إلا من خلال اندفاعه الانفعالي الخالص . ولقد نجح

الدكتور القط في بناء الطبيعة الخارجية التي يتحقق فيها انطلاقه، نجح في إثراكنا في تجاربها البصرية والسمعية والشمية ، وفي الإحساس بهولها؛ إلا أن رمزية الحدث حدث من مدى هذه التجارب والأحاسيس. والدكتور القط يتمسك بالصياغة التقليدية ، بالبيتية المقفلة ، والرتابة في عدد أبيات المقطوعة الشعرية ، مما يجعل لبلاغته طبيعة زخرفية تفقد الكثير من صورته الرائعة حيويتها الدافقة . إن الطاقة الشعرية الكبيرة للدكتور القط يتنازعها عاملان : الأول حيرته في تحديد موقف إنسانى واضح ، والثانى صياغته التقريرية التي تثقلها بلاغة زخرفية . ولكنه شاعر متمكن حقا من تعبيره الأسلوبى وصوره البلاغية التي يبرز بها وجدانه القلق الملول » وقد أجبنا عن هذا النقد بمقالة نشرت في عدد تال (مايو ١٩٥٨) من مجلة الآداب رأيت أن أثبتها هنا بنصها ، لأنها تناقش كثيرا من القضايا الأدبية الهامة في شعرنا الحديث :

« لست أعنى بهذا المقال رداً على ما وجهه الأستاذ محمود العالم إلى شعري من نقد بقدر ما أريد أن أتحديث عن مشكلة من مشكلات الأدب العربى المعاصر يكتب عنها النقاد كثيراً في هذه الأيام ، ويبرزونها في صورة تبليبل نفوس منشئى هذا الأدب ، وتسبب لهم قلقاً شديداً ينحرف بأدبهم في كثير من الأحيان عما ينبغى له من أصالة وصدق . تلك المشكلة هى غاية الأدب وما ينبغى أن يتضمنه من قيم إنسانية خاصة تخدم المجتمع

وتدفع به إلى الأمام . ولا شك أن تضمن الأدب لهذه القيم لا يمكن أن يكون موضع خلاف بين منشى الأدب وناقديه ، ولكن حقيقة هذه القيم هي التي تثير ذلك الخلاف الشديد . فالأستاذ العالم يرى أن تكون غاية الأدب المشاركة في كفاح الشعب والتعبير عن مشكلاته بحيث يكون للأديب هدف « محدد » ، وهو كغيره من التحسين لهذه الدعوة يسقط من اعتباره تلك الألوان من الأدب التي تبدو في ظاهرها ضعيفة الارتباط « بالمشكلات الاجتماعية » التي يبدو أنها تعبر عن تجربة ذاتية فردية .

أما عن دور الأدب في التعبير عن مشكلات الشعب فإن ذلك مرتبط أشد الارتباط بتطور تلك المشكلات ووضعها في البيئة والعصر اللذين يعبر عنهما الأديب . والمعروف أن المجتمع دائم التطور من نظام إلى نظام ، وفي كل مرحلة قائمة توجد بذور المرحلة التالية . وما تزال تلك البذور تنمو ، وما يزال النظام القائم يشيخ حتى ينهار انهياراً تاماً ويأخذ مكانه النظام الجديد . لذلك كانت المعركة بين القديم والجديد حول القيم الاجتماعية المختلفة إيداناً بأن التطور من مرحلة إلى أخرى قد أوشك أن ينتهى بانتصار الجديد . والأديب الموهوب يدرك إلى حد كبير حقيقة هذه المعركة ويشارك فيها وينحاز دائماً إلى الجديد ، وبذلك يجعل بتطور المجتمع . ولكن إدراكه لتلك الحقيقة لا يمكن

أن يكون من الوضوح 'والجلاء' بحيث يتمثل كل عناصر المستقبل الذى لم يولد بعد أو ينسلخ كلية عن القيم التى نشأ عليها ولا يزال يعيش بها . فأدبه فى تلك المرحلة إرهاب بالانظام الجديد ولكنه لا يمكن أن يعبر عنه تعبير الأدب الذى يولد فى ظل ذلك للنظام بعد أن يتم التطور وتتضح المفاهيم الاجتماعية الجديدة . ولكى ندرك ما ينبغى أن يكون عليه الأدب العربى فى هذا العصر يجب أن نتساءل أولاً : فى أى مرحلة تطورية يمر مجتمعنا الآن ، وما نصيب النظم الاجتماعية القائمة من الشيخوخة والشباب ؟ وفى رأى أن المجتمع العربى يعيش الآن فى ظل نظام قد شاخ منذ زمن بعيد ، ولكن شيخوخته قد امتدت امتداداً شاداً لظروف خاصة أهمها الاستعمار عامة والتركى بوجه خاص . لذلك طالت المعركة بين القديم والجديد طويلاً غير عادى ، ومرت بمراحل مختلفة كانت نتيجة كل منها تحطيم بعض القيم القديمة أو إضعافها فى نفوس الناس . ولكن القديم لم ينهزم بعد ، فما زلنا نحيا بمزيج من القيم بعضها قديم وبعضها جديد ، بل إن كثيراً من هذا الجديد لم يتأصل فى نفوسنا بعد ولم يتعد المظهر الخارجى إلى الاقتناع النفسى العميق . وإحساس الناس بمشكلاتهم لذلك لا يزال فى الغالب ضرباً من السخط المبهم والقلق الغامض ، وإن كان قد جاوز ذلك عند بعضهم لظروف اجتماعية أو ثقافية خاصة إلى درجة من الوعى والفهم تدفعهم إلى تغيير تلك الظروف التى يخطون عليها . والأديب العربى فرد من هذا المجتمع

يتأثر بظروفه وقيمه المختلفة ، وينعكس ذلك على ما ينشئ من أدب .
لهذا كان لا بد لكل هذه العناصر أن تظهر في أدبه إن كان يعبر تعبيراً
مخلصاً صادقا عن تجاربه وأحاسيسه ، وكان لا بد لأدبه أن يكون مزيجاً
من الرومانسية التي تمثل هذا السخط المبهم والقلق الغامض ، والواقعية
التي تعبر عن الوعي الذي يلتصق في نفس الأديب ولكنه لا يتيح له
رؤية واضحة للمستقبل ، لأنه لا يستطيع كما قلنا أن يدرك إدراكاً تاماً
علماً لم يولد بعد ، أو ينسلخ انسلخاً تاماً عن القيم التي نشأ عليها ولا يزال
يعيش بها . لذلك كانت دعوة النقاد إلى أدب واقعي محض ضرباً من
التعسف ودعوة للأدباء إلى تزيف أحاسيسهم ، واختلاق تجارب
لا يحسون بها إحساساً قوياً واضحاً يخلصها من كل آثار الرومانسية
الكامنة في المجتمع . وكيف يستطيع الأديب أن يكتب أدباً واقعياً
عن المرأة مثلاً تنتفي عنه العاطفية المفرطة ، والخيال الجامح في مجتمع مازال
الرجل فيه يذبح أخته أو أمه ذبح الشاة دفاعاً عن « عرضه » ويفخر
بما فعل ؟ ! لقد تحررت المرأة من حجابها ولكن هذا التحرر كما قلت
لم يتعد عند كثير من الناس المظهر الخارجى إلى الاقتناع النفسى العميق .
لذلك كان لا بد للأدب الذى يتحدث عن المرأة أن يكون مزيجاً
من العاطفية والواقعية . وكيف يستطيع الأديب أن يكتب أدباً واقعياً
محضاً عن الطبقات السكادحة وكثير من هذه الطبقات لم يحس بعد
إحساساً واعياً بمشكلاته ، ولم يندفع بعد إلى كفاح منظم في سبيل التحرر .

بل كيف يستطيع الأديب أن يفعل ذلك وهو لم يشارك في مثل هذا الكفاح مشاركة جدية تفرض موضوعاته فرضاً على مشاعره .

وليس من ضير على الأدب العربي أن يظل محتفظاً بشيء من الرومانسية ما دامت تلك الرومانسية تعبيراً صادقاً عن جانب مهم من نفوس منشئيه ومتذوقيه . بل إن إغفال ذلك خطر على الأدب في هذه المرحلة ، لأنه يغلق نفوس الناس دونه ما داموا لا يزالون يحيمون بعواطفهم إلى حد كبير ، فإذا أراد الأديب أن يثبت في أدبه دعوة واقعية في مثل تلك الظروف فلا بد أن يغلفها بشيء من العاطفية يستجيب لها قارئوه ، وهو إن كان صادقاً مع نفسه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، لأنه هو أيضاً فرد من المجتمع يعيش بقيمه ومفاهيمه . وكما « لم يكن الأدب الرومانسي في القرن التاسع عشر أدباً رجعياً ، بل كان في جوانب كثيرة منه أدباً ثورياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى » كما يقول الأستاذ العالم ، فكذلك يكون الجانب الرومانسي الصحيح من أدبنا المعاصر . وإنكارنا لبعضه إذن لا ينبغي أن يقوم على مجرد أنه رومانسي ، بل لأنه يتسم بصفات تجعل رومانسيته غير صالحة . على أن الواقعية نفسها تختلف درجاتها بحسب إيمان المجتمع في التطور واستقرار قيمه الجديدة . فعندما كتب « فلوير » رائد الواقعية الفرنسية في القصة روايته « مدام بوفاري » قامت حولها ضجة أدبية كبرى ، فقد تحدث في صراحة وجدية عن الخيانة الزوجية

ووصف وصفاً مطولاً انتحار الزوجة وآثار السم في جسدها وما عاتته من آلام بشعة قبل موتها ، وعدّ ذلك منه واقعية جريئة تخرج عما ينبغي للأدب من « لياقة » . وكذلك فعل « إيسن » رائد المسرح الواقعي حين كتب مسرحيته « بيت الدمية » و « الأشباح » ، وكان هجر بطله المسرحية الأولى زوجها وأولادها مثاراً للجدل والاستنكار ، كما كان كذلك حديث المؤلف في صراحة عن الأمراض التناسلية الوراثية في المسرحية الثانية . ولكننا الآن على ضوء ما انتهت إليه الواقعية من تطور لا نكاد نعد هذه الأعمال أدباً واقعياً إلا من حيث وضعها التاريخي في خط التطور الأدبي . وشتان بين واقعية « فلوير » و « إيسن » وواقعية الأدب الأوروبي في هذا العصر . ذلك لأن المجتمع الجديد قد اتضحت مشكلاته وبانت معالمه فانعكس ذلك على أدبه وفنه .

ودعوة نقادنا إلى الواقعية الصارمة الملحة ، فيما ينحيل إلى ، مظهر لاقتناع عقلي ثقافي قبل أن يكون إيماناً وجدانياً عميقاً . وهو في أغلب الأحيان تأثر بما يقرأون من الأدب الأوربي الواقعي الذي يعبر عن مجتمعات سبقتنا شوطاً كبيراً في التطور . ويظهر ذلك بوضوح حين يتجاوزون النظريات إلى التطبيق ، فتراهم في أغلب الأحيان يحكمون على النصوص الأدبية بمقوّمهم فيخلطون بين الجيد والردىء حسب ما يميله إقتناعهم الذهني .

وقد أحدث الإلحاح في هذه الدعوة ، كما قلت في مطلع المقال ، بلبلة خطيرة . في نفوس الأدباء جعلت كثيراً منهم يتنكرون لأنفسهم ويتكفون التعبير عن تجارب لم يعانونها ، ويحتذون نماذج فنية لا يحسنون الكتابة فيها . فقد أصبح الحديث عن القرية مثلاً شائعاً في الشعر الحديث . ولكن هؤلاء الشعراء لا يرون في القرية عن عمد إلا « الشيخة الضريرة تدب على العصا » ولا يسمعون إلا « أحاديث الجدة العجوز » إلى آخر تلك الصور . وإن هم كتبوا عن المدينة فليس فيها إلا سعال البغايا والمصدورين وألوان الحرمان والتشرد . وهم يكتبون عن الحرب قصائد أغلبها من صنع خيالهم كوضوعات الإنشاء التي يطلب فيها إلى التلميذ أن يصف « يتيماً في يوم عيد » . ولو قد ترك هؤلاء الشعراء أنفسهم على سبيلها ، واستجابوا لوحى تجاربهم الخاصة ، لتأتى لهم من ذلك شعر فيه مثل هذه العناصر الإنسانية مع صدق التعبير وقوة الإحساس والبراءة من التكلف . فليس الأدب الذي يصور البؤس والظلم والتعاسة هو وحده الأدب التقدمي ، بل إن كثيراً من ألوان الأدب التي ترسم ما في الحياة من جمال وأمل تنتهى إلى هذه الصفة كذلك بما تبثه في نفوس متلقيها من معاني التفاؤل والقوة والتطلع إلى الاستمتاع بهذا الجمال . ولن يشعر إنسان ببؤسه وفاقته إلا إذا أوتى الحس الذي يدرك قيمة السعادة والرفاهية إدراكاً يدفعه إلى الانتفاض على بؤسه وفاقته ، كما أن تذوق الجمال في

ذاته متعة نفسية كبرى تنفي عن الحياة ما فيها من سأم وملال ، وتسمو
بإنسانية الفرد فتجعله أسرع استجابة لنداء الخير ، وأكثر تطلعاً إلى الرقى
والتقدم . وليس معنى ذلك أننا ننفض من قدر الأدب الذي يعبر
عن البؤس والمظالم ، أو ننكر دوره الكبير في نهضة المجتمع ، ولكننا
نريده أدباً صادقاً من وحي تجارب الأديب وبيئته .

وعلى ضوء ما ذكرته أحب أن أناقش رأى الأستاذ العالم في شعرى
وهو يبدأ بقوله : « إن الخاصية العامة لشعر الدكتور القط أنه من حيث
المضمون فاقد لهدف محدد وإن كشف عن جهدائب للوضوح والاستقرار .
ولكنه سأم ، ملول ، قلق متعلق ، دائماً برؤيا بعيدة يتوقع منها معجزة
الخلاص . وهذا ما يشيع في شعره أحياناً مسحة تفاؤلية ولكنها غائمة
كذلك » . أما إن شعرى فاقد لهدف محدد فهذا صحيح ، إن كان المراد
أن يلزم الشعر خطأً ضيقاً مستقيماً لا يحيد عنه ؛ فالنفس البشرية
ليست من الآلية بحيث تسير قدماً دون التواء أو تعرج أو نظرة إلى
وراء أو عن يمين أو شمال ، وهى دائماً تكتسب تجارب جديدة وتواجه
مشكلات متعددة ، فهى لذلك دائماً التطور والتجدد . وما أظن أحداً من
الناس يستطيع أن يحدد هدفه من الحياة تحديداً دقيقاً جامداً غير قابل
للتغير . والأستاذ العالم نفسه يقول : « وليس معنى هذا أن كل شاعر له
اتجاه عام جامد ، بل إنه يخضع لمحنيات متعددة من التغير على المدى

الطويل من حياته التصويرية » . ولست أدري بعد قوله هذا : لماذا يطلب
أن يكون لي هدف « محدد » ؟! . ومع ذلك فإن لي هدفاً وإن لم يكن
جامداً . وفي شعري تفاؤل ولكنه غير غائم . وكيف يكون تفاؤلاً غائماً
مثل قولي من قصيدة « عرافة » .

يا فتتى لا ترهبي الغيب الخبيء ولا دجاء
هو صنع أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه
غرس ، من الأفراح والأتراح والسلوى نراه
نلقى به في يومنا ونذوق من غدنا جناه
تهب الحياة لنا غداً من مثل مانهب الحياة .
وكيف يكون شعراً لهدفه مثل قولي من قصيدة « لن أنام » :

ها قد بلغت قمة قد كان صعباً مرتقاها
شبو على أعلى البروج لهيبها وارعوا لظاها
مدوا بأيديكم لمن في السفح يصعد في حماها
وتجمعوا من حولها دنيا يعذبها طواها
تلقى على أكتافها من غير مسألة قراها
شبعاً ومأمنة وعزة أنفـس تعلـى الجباها

ولعل كلمة قصيرة عن القصيدة الأولى يمكن أن تبين حقيقة الخلاف
بينى وبين الأستاذ العالم ، فهو فيما ينحيل إلى غير راض عنها ، لأنها لم

ترتبط بدعوة جماعية شاملة ، بل كانت حديثا إلى فتاة تستطلع غيبها
في بقية شرايها . لذلك كان تفاؤلها في رأيها تفاؤلا غائما . أما أنا فقد
اتخذت موضوع الفتاة وسيلة لكي أصور في القصيدة جوا خاصا رأيت
فيه عاطفة ينساق القارئ معها إلى تلقى هذا التفاؤل . والفن كما هو
معروف يعتمد على الإيحاء لا على القول الذهني المباشر . ولن ينغذ
الإيحاء إلى النفس إلا إذا كانت في حالة استغراق يعدها لتلقى ذلك الإيحاء ،
وهذه هي الرومانسية المتقدمة التي عنيتها في صدر المقال ، والتي تعبر تعبيرا
صادقا عن المرحلة الاجتماعية التي نجتازها . ويتصل بذلك ما يقوله عن شعري
من أنه « سامان ملول قلق متعلق برؤيا غائمة يتوقع منها معجزة الخلاص »
وأنا سعيد ، إذ استطعت أن أنقل هذا الإحساس إلى الأستاذ العالم فإني
بذلك أعبر عن تجربة العصر والبيئة التي أعيش فيها . فلست وحدي
القلق الملول ، بل إن ملايين من الشباب العربي يعانون هذه التجربة
ويحسون بقلق غامض لا يدركون كنهه لما في حياتهم من دواعي
الكبت والفشل ، ولكني لم أكتف بمجرد التعبير عن هذا القلق ، بل
« تعلقت برؤيا غائمة أتوقع منها معجزة الخلاص » . وتلك أول مرحلة
في سبيل التحول من الرؤيا الغائمة إلى الرؤية الصادقة المبصرة إذا تمسكنا
مع التطور الطبيعي للمجتمع في كفاحه نحو مستقبل أفضل .

والأستاذ العالم معجب أشد الإعجاب بمنهج الشعر الحديث الذي

« لا يتمسك بالصياغة التقليدية ، بالبيتة المقفلة والرتابة في عدد أبيات المقطوعة » وأحب أن أصرحه بأنى لا أقل إعجاباً بالجيد من هذا الشعر، ولكن لا أراه الوسيلة الوحيدة للتعبير الشعرى الموفق، ولا أرفض ما عدها من الشعر لجرد البيتة المقفلة والرتابة في عدد أبيات المقطوعة . والشعر الجديد مازال باعتراف الأستاذ العالم يمر بدور التجربة وهو « ضعيف في التعبير والصياغة » كما يقول ، وهذا أمر خطير . فالأستاذ العالم يريد أن « يكسر رقبة البلاغة العربية » التى تعنى فى الغالب بالصياغة والزخرف . لكن البلاغة الجديدة مع ذلك تستحق « كسر رقبتها » هى الأخرى . فهى لم تزد على أن نقلت العناية من الصياغة إلى المضمون ففعلت ما كانت تفعله البلاغة القديمة من فصل غير طبعى بين اللفظ والمعنى . والأدب ، كما يقرر الأستاذ العالم — حين يتحدث عن النظريات دون التطبيق — كل متماسك لا يتجزأ: إما أن يكون أدباً أو لا يكون . والشعر الذى يمكن أن نصفه بأنه « ضعيف فى الصياغة والتعبير » لا يمكن أن يعد شعراً . فليس المراد من الشعر مجرد تسجيل للأفكار ، وإنما يراد به نقل تجربة الفنان إلى قارئه بحيث تنفذ إلى نفسه فينفع بها وتستقر فى وجدانه فتؤثر على نظراته إلى الحياة وإدراكه للأشياء . وفرحة النقاد الذين يدعون دعوة الأستاذ العالم بذلك الشعر الفاضل وإن عبر عن مضمون إنسانى فرحة زائفة . فما كان الفن يوماً مجرد عرض للحقائق والأفكار . وقد يمكن أن ندرس هذا

الشعر على أنه مقدمات لتطور فنى جديد ، ولكن بعد أن يتم هذا التطور ويتوفر لدينا من النماذج الجديدة الناجحة قدر كبير تكون دراسة تلك المقدمات معه تأريخاً لذلك التطور وليست تمجيذاً للشعر الفاضل فى دور الانتقال . أما أن يتجاوز إعجاب الأستاذ العالم بهذا الشعر حداً يرفض معه كل ما يكتب الشعراء من شعر يتسم بالبيتية المغلقة والرتابة فى عدد أبيات المقطوعة فتعنت لا تفره . إن هذه الأطر الفنية التى لا ترضى الأستاذ العالم لم تتعد حياتها فى الشعر العربى أكثر من ثلاثين عاماً بعد معركة ضخمة بين القديم والجديد لا يزال أصحابها أحياء بيننا ، وما زال كثير من أنصار المدرسة الكلاسيكية المنهزمة يكتبون شعرهم بالأسلوب القديم غير معترفين بما حدث من تطور ، بل إن قدراً كبيراً جداً من الشعر الأوروبى — حتى عند أكثر الشعراء تمجيداً — ما زال يكتب فى البيتية المغلقة ونظام المقطوعة . ولست أدرى كيف تكون البيتية المغلقة والرتابة فى عدد أبيات المقطوعة داعياً إلى الزخرف . أفهم أن يكون ذلك فى بعض الأحيان حائلاً دون التعبير المتكامل إذا لم يكن الشاعر متمكناً من لغته ، صادقاً فى أدائه . أما أن يكون سبباً إلى الزخرف فأمر غير مفهوم . على أن الزخرف فى ذاته ليس عيباً إذا كان هدفه إبراز إحساس الشاعر فى صورة قوية مؤثرة . ونحن نلجأ إليه فى حديثنا العادى — غير واعين — كلما افعلنا بما نقول أو أردنا تأكيد ما يحول فى نفوسنا من خواطر . أما إذا كان الزخرف تقطية لضحالة

الاحساس أو تفاهة الموضوع فذلك عيب لاشك فيه . والبساطة مع جملها لا تصلح للتعبير عن كل الأحاسيس والصور ، فهناك موضوعات لا بد للشاعر أن يستعين فيها بشيء من الخيال الجامح والتعبير المنق ليبرزها في أسلوب قوى مؤثر . وفي رأبي أن أصحاب المدرسة الجديدة من الشعراء يغفلون غلوا كبيرا في هذه البساطة فيجىء شعرهم في كثير من الأحيان غير قادر على النفاذ والتأثير . ويخيل إلى أن الدعوة إلى هذه البساطة المفرطة وليدة الرغبة في أن يكون الشعر المكافح مفهوماً عند أكبر عدد من القراء . وهى رغبة نحمدها لهؤلاء النقاد ولكن الشاعر مع ذلك لا حيلة له في هذه المشكلة ما دام يكتب بلغة لا يحسنها كثير من القراء . فهو لكي يكتب شعراً ناجحاً لا بد أن يستغل كل إمكانيات اللغة التي يكتب بها ، وموهبته وثقافته هما اللتان تحددان موقفه من بعض الأساليب والألفاظ .

وفي مقام الإشارة إلى لغة الشعر أحب أن أعترض إلى القارئ عما سيصادفه في هذا الديوان من ألفاظ قليلة تعتبر الآن غريبة شيئاً ما على الشعر الحديث ، وقد لا يفهمها من لم يتتقف ثقافة عميقة في الشعر العربي القديم . من ذلك قولى « وأسى أرق حديثها جرح » والأمسى جمع أسوة أى ما يتأسى به المرء . ومنها كلمة « مَهْمَه » التي وردت في قصيدة « في طريق الحياة » ومعناها الصخراء . ولعل أوضح مثل لهذا قولى في مطلع تلك القصيدة :

في طريق من كفى الأنضاء والصرعى صُواء

والصوى علامات الطريق ، ولقى الأنضاء أى الأجساد المطروحة
الملقاة فى الطريق بعد أن سقط أصحابها من الإعياء والجهد .

وبعد ، فما قصدت بهذه المقدمة أن أدافع عن شعرى ، فإني أعلم
أن إحساس القارئ وفكره هما المقياس الأوحى فى النهاية للحكم على
العمل الفنى ، ولن تجدى المقدمات إلا فى بيان بعض جوانب العمل
التي قد تعين القارئ على هذا الحكم ؛ وإنما أردت بها أن أناقش
بعض القضايا الهامة التي تنور فى هذه الأيام حول القديم والجديد .
وأرجو ألا أكون فى هذه المناقشة قد اتخذت من الشعر الجديد موقفاً
يبلغ حد التعصب ، فليس أسوأ من أن يقف الناقد فى سبيل التجديد
والطور ، أو يعوق خطأ العاملين على أن يلحق شعرنا بركب الشعر
العالمى ، فيشارك مشاركة فعالة فى نهضة المجتمع ، ويسير روح الحياة الحديثة
فى أسلوبه ومضمونه . وما اعتقدت يوماً أن الشعر يمكن أن يجمد أبداً
الدهر على قوالب معينة لا يتعداها . وإذا كان ذلك قد حدث بالفعل
للشعر العربى أمداً طويلاً فلأن المجتمع العربى كان حينذاك مجتمعاً
راكداً يخضع لنظم اجتماعية واقتصادية ثابتة لا يكاد يعتريها من التغير
إلا أيسره مما يتمثل فى عدل حاكم أو ظلمه ، أو زوال أسرة حاكمه وقيام
أخرى ، أو غير هذا من مظاهر لا تمس صميم الحياة . وحين نفى ذلك
المجتمع عنه غبار الركود بدأ الأدب بخطوطه على واسعة سريعة نحو التقدم ،
فظهرت فيه ألوان جديدة لم يعرفها من قبل كالمسرخية والرواية ،

وتطورت الأشكال القديمة من نثر وشعر في هذه الفترة القصيرة تطورا لا يمكن أن يقاس إليه ما تم إبان تلك العصور الطويلة كلها . والناظر في أمر النثر العربي الحديث مثلا يرى أنه قد بعد بعدا كبيرا عن الأساليب التقليدية القديمة حتى ليشك المرء في قدرة القدماء على فهم بعضه لو أتيح لهم أن يقرءوه . ومع ذلك فنحن لا ننكر عليه هذا التطور ، ولا نزميه بالخروج على أساليب اللغة العربية وتقاليدها ، ولا نقف منه موقفنا الحذر من الشعر ، لأننا نمارسه كل يوم في حياتنا العملية فنحس بضرورة ما ندخله عليه من تجديد ، بل لا نكاد نشعر قط بهذا التجديد وهو يتم بطريقة تلقائية غير واعية في معظم الأحيان .

أما الشعر فإننا ننظر إليه على أنه قوالب فنية محضة ولا يمارس نظمه إلا القليلون ، ولا نقرؤه إلا بين حين وآخر بأذواق قد نشئت في المدارس على الشعر القديم وحده . ومن هنا لا تتقبل في بسر ما يطرأ عليه من تطور ، ونقيسه دائما إلى ما نعتقد أنه الصورة النهائية الحاسمة للشعر العربي . وتتضح هذه الحقيقة حين نذكر أن الأشكال الحديثة للقصيدة العربية ، تلك التي تعتمد على المقطوعة والقافية المتخيرة ، قد أصبحت الآن أشكالا مقررمة معترفا بها ، يدافع عنها خصوم « الشعر الجديد » باعتبارها بمثابة للشعر القديم ، مع أنها في الحقيقة كانت منذ أمد قصير لا يزيد على أربعين عاما تعد ثورة على القديم ، ولم تخرج إلى

الوجود إلا بعد معركة عنيفة طويلة بين القديم والجديد . وإذا كانت قد استطاعت أن تأخذ مكان الشعر التقليدى رغم تأصله فى حضارتنا ونفوسنا تأصلا عميقا فليس ما يمنع أن يخلفها هى نفسها بعد حين جديد آخر .

ومع ذلك فإن هذا التطور ينبغى أن يتم على نحو طبيعى صالح ، فلا تنقطع فيه الصلة فجأة بين القديم والحديث ، لأن حياتنا فى كثير من مظاهرها لا تزال وثيقة الصلة بمراحلها التاريخية السابقة . ولا يجوز لنا أن نمجد أى تطور مهما يكن شأنه ، بل لابد أن يكون قائما على أسس سليمة تضمن له البقاء والنضج .

وإنى أرجو أن يجد بعض الناس فى هذا الديوان تصويرا صادقا لعواطفهم إن كانوا لا يزالون يمرون بمثل تلك المرحلة العاطفية التى كنت أجتازها حين نظمته ، أما الآخرون فإنى أرجو أن يروا فيه تعبيراً عن فترة خاصة من حياة الشاعر ، وطور معين من أطوار شعرنا العربى الحديث .

عبد القادر الخط

القاهرة فى ١٠ ديسمبر ١٩٥٨

وَتَلَقَّ

أَيَّ إِحْسَاسٍ بِصَدْرِي يَتَنَزَّى
أَيَّ أَخْلَاطٍ بِنَفْسِي تَضْطَرِبُ !
وَمَعَانٍ أَوْسَعَتْ رُوحِي وَخَزَا
وَأَمَانٍ كَالْأَتُونِ الْمَلْتَهَبِ !

ثَائِرًا يَزْفِرُ مِنْ تَحْتِ الدَّخَانِ
لَسْتُ أَدْرِي مَا الَّذِي يَوْقِدُ نَارَهُ
غَيْرَ أَنِّي أَكْتُوِيهِ كُلَّ آنٍ
وَأَذْكُرُّهُ مِنْ دَمِ الْقَلْبِ أَوَارِهِ

لست أدريه . . . ولكنى أحسه
فى سياطٍ من حنينٍ قانياتٍ
ويجنبي مستطار طال حدسه :
أى ماضٍ يشبهه . . أى آتٍ ؟

أى شيء فى حياتى قد فقدته ؟
أى معنى من زمانى أبتغيه
كما خيل لى أنى وجدته
قذف التنوير بالنيران فيه

كل شيء فى حياتى كالضباب
لست أدرى ما مداه إن قصدته
وطريقى ذو دروبٍ وشعاب
يقتضينى كلُّ دربٍ لم سلكته

إن أردتُ المجدَ طافت بي رؤاه
ألفُ رؤيا يفتلى فيهنَّ ربي
أو أردتُ الحبَّ أوَلّقتني دُمَاه
حيرةً تغتال ما يهفو بقلبي

ليس مجدًا أو غراما ما أريدُ
ليت شعري أى شيء أفتقدُ ؟
أى شيء ! كلُّ شيء في الوجود
آه لو جُمع يومًا فاتَّحد !

ظلمًا بثوى لهاتي حرُّه
فإذا قاربتُ ينبوعًا خمدُ
ونداء من رغبى سحره
كلما ملتُ إليه لم أجِدْ

ها هنا رَوْحٌ وَلَكِنِّي مَلُولٌ
ها هنا رَاحٌ وَلَكِنِّي قَلَقٌ
كلُّ قَصْرِ تَحْتَهُ سُفْعُ الطُّلُولِ
كلُّ صَبْحٍ فِيهِ أَسْدَافُ النِّسَقِ

سَأْمٌ يَنْفُثُ فِي الْكُونِ السَّامَ
ليس يَرْضَى عَنْ مَكَانٍ أَوْ زَمَنٍ
يَنْشُدُ الْجِدَّةَ حَتَّى فِي الظَّلَمِ
ليس يَعْنِيهِ قَبِيحٌ أَوْ حَسَنٌ

أَيُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِي قَدْ فَقَدْتُهُ ؟
أَيُّ مَعْنَى مِنْ زَمَانِي أَبْتَغِيهِ !
كَلَّمَا خِيَّلَ لِي أَنِّي وَجَدْتُهُ
قَذَفَ التَّنُّورُ بِالنِّيرَانِ فِيهِ

فِي طَرِيقِ الْحَيَاةِ

فِي طَرِيقٍ مِنْ لَقَى الْأَنْضَاءَ وَالصَّرَعَى صُوءًا.
وَفَضَاءَ لَمْ تَعَانِقْ أَرْضَهُ يَوْمًا سَمَاءَ
مُفَرَّغًا تَرْجِعُ الْأَبْصَارُ حَسْرَى عَنْ مَدَاهِ
أَضْرَبَ الْأَرْضَ طَلِيحًا تَحْتَ أَعْيَاءِ الْحَيَاهِ
وَشَبَابٍ لَمْ يَمْتَعِ بِالشَّبَابِ

أَغْتَدَى فِي زَحْمَةِ الْأَطْمَاعِ مَشْدُودَةَ الرَّجَاءِ
وَأَرُودُ الْوَدِّ فِي دُنْيَا مِنَ الْوَدِّ خَلَاءِ
مَفْرَدَ الْقَلْبِ . . . وَلِلْقَلْبِ حَنِينَ وَاشْتِهَاءِ
ظَامِيَّ الرُّوحِ . . . وَلِلنَّعْمِ بِأَسْمَاعِي غَنَاءِ
مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ... مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ

أُغْتَدَى فِي مَهْمِهِ الدُّنْيَا وَمَا لِي مِنْ رَفِيقٍ
غَيْرَ رُوحٍ سَادَرَ النُّجُوى وَقَلْبٍ لَا يَفِيقُ
كَلِمًا أَوْغَلْتُ فِي الْقَفْرِ تَرَاءَتْ لِي بِرُوقِ
وَامْضَاتٍ بِأَمَانِيٍّ كَأَطِيفِ الشُّرُوقِ
بَعْدَ لَيْلٍ مَدْلُومَةٍ وَضَبَابِ

طَالَمَا أُدْرِكْتُ أَنْ الْبَرْقَ خَلَابَ جَهَامٍ
وَرَأَيْتُ الْقَطَرَ مَحْبُوسًا بِأَطْبَاقِ الْغَامِ
غَيْرَ أَنِّي كَلِمًا رَاوَدَ أَجْزَانِي الْمَنَامِ
قَذَفْتُ بِي ظَامِئَاتٍ مِنْ رَغَابِي لِلْأَمَامِ
وَلَقَدْ يُنْجَى مِنَ الْيَأْسِ السَّرَابِ

أَتَمَخُّطُ الصَّخْرَ . . . لَا عِزًّا وَلَكِنِّي أَسِيرُ

وعلى السائر أن يمضى وإن شق العبور
لم أعد أسأل ما الجدوى ولا أين المصير
ما سؤالى ؟ ! وفؤاد القفر مسلوب الضمير
ليس يصنى لسؤال أو جواب

فى طريقى كم تراءت لى جنان وادعات
مقلات الدّوح بالأثمار شتى ناضجات
يرفل الظل بها فى مسرح جمّ الشيات
ويمس النهر فى أعطافها رجب الجهات
بين أفوافٍ وألفافٍ وغاب

كم رأت عينيّ وكم قد حنّ للروضات قلبى
فتركتُ الدربَ مهجورا وختُ الروض دربى

وَهَفَّتْ لِلْعُشْبِ أَقْدَامِي وَقَالَ الْجَهْدُ : حَسْبِي
وَرَفَعْتُ الْكَفَّ لَلَّهِ . . . أَقْضَى حَقَّ رَبِّي
مِنْ ثَنَاءٍ وَصَلَاةٍ وَمَتَابٍ

وَإِذَا بِالرَّوْضِ قَدْ حَقَّتْ بِهِ جَنْدُ عَتَاهِ
لَمْ يَبَالُوا حَرَمَةَ الْحِمْدِ وَلَا قُدُسَ الصَّلَاةِ
صَاحَ مِنْهُمْ صَاحٌ : رَدُّوا عَنِ الرَّوْضِ الْجَنَاهِ
أَغْرَيْبُ مِلْكُنَا الْمَحْبُوبُ مِنْ بَعْضِ مَنَاهِ ؟ !
اشْهَرُوا الْبَيْضَ وَهَزُوا لِلْحَرَابِ !

فَهَوَّتْ مِنْ حَضْرَةِ الرَّبِّ إِلَى الْأَرْضِ يَدَايِ
وَتَلَاشَى حَمْدِي الْمَبْتُورُ وَانْجَابَتْ رُؤَايِ
قُلْتُ : هَدَى الْحَرْبُ يَا قَوْمُ أُعِدَّتْ لِسَوَايِ

أنا منكم . طال في البید ثَوَائِي وسُرَائِي
كيف تلقون أخاكم كالذئاب ؟ !

قد صَحَبْتُ الليل . . . والليل على البید رهیب !
ونهاراً للحصى من قيفظه العالی وَجِيب
منحتنی البیدُ بلواها وَأَخَفْتُ ما يطیب
من رُوءاء الفجر في الشرق ومن سحر الغروب
لم أُنَل منها سوى قبض التراب !

يا صحابی روضکم ریان متمد الظلال
لن تضيق اليوم بی سرحاته النیح الطوال
فدعونی يلتئم جرحی . . . ولی بعد ارتحال
لن أقيم الدهر فيه ويُنَبِّئُ ملال
يَحْزُ القلبَ إلى هذى الشماط !

يا حبابي ! . . . أيها الواغل لسنا من صحابك
 إسعَ في قفرك ما شئتَ وهوِّم في شعابك
 نحن من أصلاب مجدٍ . . امضي لسنا من ترابك
 وإذا ما مسَّكَ الضرُّ فكفكف من رغبك
 واترك الدنيا لأرباب الرغاب

غَشِيَ الرُوضَ سَكُونٌ رَاكِدُ الْأَغْوَارِ أُخْرُسُ
 لَا الْغَدِيرُ الْوَادِعِ أَنْسَابُ وَلَا الزَّهْرُ تَنْفَسُ
 وَدَجَا الظِّلُّ فُخْتُ الظِّلِّ فِي وَجْهِهِ يَعْْبَسُ
 وَجَرَى فِي وَهْمِ الْمَجْبُولِ أَنَّ الرِّيحَ تَهْمَسُ :
 لَسْتَ يَا أَفَاقُ أَهْلًا لِلصُّحَابِ

قُلْتُ يَا أَقْدَامِي الْخُسْرَى إِلَى دَرْبِكَ عُودِي

وتأمتني يا لهاتني من خيالي بالوعود
واصبري للظلم القاتل يغتال نسيدي
فعداً في روضتي العذراء يَخْلُو لي وُرودي
وأرويك من الشَّهْدِ المذاب

روضتي العذراء في الرِّبوة لم يُطْمِث ثراها
خلف هذى القفرة الجرداء قد طاب جناها
ضلَّ عنها الناسُ واستخفى عن الناس شذاها
قلبي العامرُ بالآيمان يوماً سيراهَا
وسـيـلقاها وإن طال الغياب

أَنْتِ كَالنَّاسِ!

جَفَّ الْقَدِيرُ وَصَوَّحَ الزَّهْرُ
فَالآنَ لَا سَكَنَ وَلَا رَوْحُ
لَمْ يَبْقَ إِلَّا الْفَكْرُ وَالشَّعْرُ
وَأَسَى أَرْقُ حَديثَهَا جُرْحُ

لَمْ يَبْقَ إِلَّا لَوْعَةُ الذِّكْرِ
وَحُطَامُ آمَالٍ وَأَحْلَامِ
وَمَنَاسِرُ وَمُخَالِبَ حَيَرَى
بَيْنَ الرَّجَاءِ وَقَلْبِي الدَّامِي

وخيالك النشوان بالأم.

تتضاحك الأقدار في فيه
سكرى بما أهرقت من وهمي
وحطمت من قدح أفديه

ومثالك المرسوم في خلدي
خزيان يرعش من مهاويك
يا ويحه ! أفنيت فيه يدي
ومحاه رجس من أياديك !

سويته روحاً أقدسهُ
وتراه رجع قرارها نفسي
أشتاقه وأهاب المسهُ
وأريله فيخونني حتى !

أَسَدْتُ فِي مَحْرَابِهِ الْحُجْبَا
وَسَمَّا بِهِ مَا شَاءَ حَرَمَانِي
وَعَشَقْتُ خَلْفَ سُتُورِهِ الْغِيَا
وَلَحْتُ عِنْدَ عِلَاحِ سُلْطَانِي

قَدْ قَلْتُ حِينَ طَلَعَتْ فِي أَفْقِي
بِيضَاءَ يَغْمُرُ نُورُكَ الْأَفْقَا
قَدْ غَابَ لَيْلُ الشُّجُو عَنْ طَرَقِي
وَبَدَا الصَّبَاحُ يَضَاحُكَ الطَّرَقَا

أَلْقَيْتُ أَحْزَانِي إِلَى أَمْسِي
وَزَهَا بِأَوَّلِ بَسْمَةٍ قَلْبِي
وَنَسِيتُ أَوَّلَ مَرَّةٍ نَفْسِي

وَهَجَرْتُ آلَامِي إِلَى الْحَبِّ

وَهَجَرْتُ آلَامِي إِلَى أَفْقِ
يَنْفِي الهمومَ وَيَنْفَحُ البُشْرَا
بَاكِرَتُهُ بِجَنَاحِ مَنْطَلِقِ
وَرَفَعْتُ فِيهِ للهوى قَصْرَا

قَصْرُهُ تُشَارِفُ سَاحِلَهُ الْقِمَمُ
سِحْرُهُ وَكُلُّهُ فَتْوَنُهُ أَنْتِ أ .
أَنْ تَسْكُنِي تَهَامِسُ النِّعَمُ
وَيَمُوجُ فِيهِ اللَّحْنُ إِنْ مَرَّتِ

تَتَخَطَّرِينَ وَتُوبُكِ التَّيْرِي

بأدى الهيام بقْدك العاجي
ألوانه إشراقه الفجرِ
وحقيقه خفقات أمواجِ

تسرى بأنهارٍ مُسبَّحةٍ
تهفو إليك برُوحٍ مشتاقِ
سلسالهنَّ رفيفُ أجنحةٍ
وتسيمهنَّ حديثُ عُشاقِ

وعلى الضفافِ مُدَلَّهٌ صَادِي
يَأْبَى الوُروْدَ لغيرِ سُقْيَاكِ
شفتاكِ أَثْمَى خَمْرَةِ الوَادِي
وَنَمِيرُهُ الرِّقَاقُ نَجْوَاكِ !

أهفو لصوت جلالك الداعي
وأهابُ صمتَ جلالك السامى
فإذا أجبتُ نداءَ أطماعى
تتراعشُ الأستارُ قُدَامى !

وطلعتِ فالتمعتُ بك الدنيا
لنَعِ الشعاعِ تسوقه الظلمُ
فجُرَّ كَذُوبُ النورِ لا يحيا
ومَعِينُهُ الديبورُ والعدمُ

من أنتِ ؟ ! ما أنتِ التى منحتُ
كأبى الرّمادِ تألّقَ الماسِ
من أنتِ ؟ ! إنَّ الحجبَ قد رُفِعتُ
واحسرتا . . أفأنتِ كالنّاسِ !

مَلَيْتُ مِنْكَ الْعَيْنَ وَالسَّمْعَا
وَسَلَوْتُ عَشَقَ الْغَيْبِ وَالسِّرِ
فَإِذَا الرُّوَاهُ غَلَالَةُ الْأَفْقَى
وَإِذَا الصَّفَاءُ رَيْبَةُ الشَّرِّ

شَفَتَاكَ لَا مَاءَ وَلَا خَمْرُ
أَسْطُورَتَانِ رَوَاهَا وَهَى
وَحُطَاكَ لَا عَاجُ وَلَا تَبْرُ
وَيَحِ الْخِيَالُ . . . وَبُعْدَ مَا يَرَى

طَالَعْتُ مِنْهُ مَصْرَعَ النَّسْرِ
وَشَهِدْتُ فَتْكَ الرَّجْسِ بِالْقُدْسِ
فَضَمَمْتُ أَحْزَانِي إِلَى صَدْرِي
وَرَجَعْتُ مَغْلُوبًا إِلَى نَفْسِي

هـم الناس

أليلاى هزتنى للقياك خفقه
تثور بروحى كلما طاب سامر
إذا شعّب القوم الحديث وهوموا
بكل طريق زينته الخواطر
ذكرت حديثاً منك تندى لحونه
معطرة الأصداء ، والحسن عاطر
ورحت أجيب الذكريات فأسكتت
لهاتى ذكرى ما تزال تخامر
إذا ساور التحنان قلبى تملكت
أفاعر من الشك الدفين تساور !
أليلاى هذا موطن العذر فاسمعى

لمستوحشٍ طَمَتْ عليه الدياجر :
عرفتُكِ والآلام تفرى حُشاشتي
وبيني وبين العاديات أواصر
وحَوَّلِي من الصمت الكئيب مفازةً
تعاوَى بها ماضي وزجر حاضر !
عرفتُكِ نِمْرَاحَ الأغاريد طَلقةً
كما عاد موفوراً إلى العنق طائر
لديكِ ثَوَى من كلِّ شيءٍ تقيضُهُ
يناصر كلُّ ضِدِّه ويؤازر
عليكِ من الأضواء أبيضُ فاتِنٌ
وفيكِ من الأظلال أَسْمَرُ آسر
تَقَدَّسَ فيكِ الحسنُ والحسنُ طاهرٌ
وعربَدَ فيكِ الدُّلُّ واللُّلُّ فاجر !
عرفتُكِ فأنجابت عن القلب عُمَّةٌ

أضواء دياجيتها خيال مغامر
جسور على الآفاق . ما طاف عالم
يبعض مجاليه ولا حام كاسر
ملأت شغاف النفس حتى كأنما
إليك طواها عن دنا الناس ساحر
فأنت لها في مجمع الخلق شرعة
تضائل عنها ما تلوك الضمائر
رضاك هو الحل الذي تستبينه
وإن تسخطي فالحق خزيان صاغر !
تجلت لروحي منك دنيا جديدة
وأسدل دُونَ العاديات ستائر
وخلّيت للماضي الشقي كآبتي
ورحت إلى يومى السعيد أبادر
إذا استبقت يوماً لأنفى غمامة

أو ابتدرت يوماً إلى البوادر
فذكرُك في الأحزان بُشرى وفرحة
وفي التَّيِّه والديجور سمع وناظر . . .

عشقتك لم أحفل بما قال قائل
ولم تستثرني عن هواك الزواجر
وما اعتقدتك النفس يوماً حبيسة
لنفسك به تلغو العقول القواصر
وكيف ؟ وللحسن الفتى رغائب
حواكم في الغيد الحسان قوادر
يحمم منها ناثر الرأس جامع
ويهدر منها رائع الموج زاخر . . .
ولكن صوتاً بين جنبيّ لهم أزل
أخافتُ بالأوهام . . وهو يجاهر :

أَتَشَقُّ مِنْ دُنْيَاكَ غِرًّا أَثِيمَةً
تُرَاوِحُهَا لَذَائِهَا وَتُبَاكِرُ ؟ !
تَصَاوَمْتُ عَنْهُ بَعْضَ حِينٍ فِرَاعِنِي
بَصِيحَةٍ عَاوٍ مَزَقَّتْهُ الْبَوَاتِرُ
تَمَطَّى فَأَنْتُ فِي دِمَائِي جِرَاحُهُ
وَنَارُ فَقَرَّتْ فِي عُرُوقِي الْأُظَاغِرُ !
تَوَهَّمْتُ أَنِّي قَدْ خَلَصْتُ مِنَ الْوَرَى
فَإِذَا بِهِمْ مِمَّا تُجْنُّ السَّرَائِرُ
إِذَا قُلْتُ غَابُوا عَنْ عِيَانِي تَزَاوَحُوا
عَلَى مِنَ الْجُنْحِ الْعَمِيقِ وَبَادَرُوا
وَزَفَّ عَلَى قَلْبِي الْمَلُوعِ خَيْبَتُهُمْ
وَوَقَّعَهُ صَوْتُ مِنْ ضَمِيرِي سَاخِرُ !

هَمُّ النَّاسِ يَا لَيْلَايَ صَاغُوا ضَمِيرَنَا

على قالبٍ مما يُريد الأَكابر :
طلعنا على الدنيا بنفسٍ رَضِيَّةٍ
سواءٍ لَـيَـها في هواها المناظر
يُجاذِبها جَنَحٌ من الليل حالِك
ويفتنُها ضوؤُ من الصبح باهر
إذا صَفَت الآفاق تهوى صفاءها:
وتبسم إن غامت عليها المواطر
تقدَّسُ في الطهر البتول سكُونُها:
وتمضى إلى الخِلِّ اللُّعوب تسامر
وتبسط كَـفَـيها إلى كلِّ هاتِف
ويدفعها شوق إلى الناسِ غامر
ولم تُكْ تدرى يومَ ذلك ما التَّقَى
ولا النعى . . إلا ما تقول المشاعر
هُمُ الناسُ يا ليلَى صاغوا ضميرَه

فأوفت بنا للنائرات الضمائر
 عرفنا من الناس الغواية والثقي
 وصاحبنا ناهٍ من الناس أمر
 وقامت بنا للخير والشر ساحة
 هوت بئرها للسلام منائر
 غرامك في الأحشاء عاتٍ مسيطر
 ورأيت في الأعماق غضباناً ثائر
 ولى من هواك المرّ قيدٌ أحبه
 أخاف عليه همّتي وأحاذر
 وأحنو عليه كلما عَضَّ خافقي
 كما تشهى عَضَّةَ الطفل عاقر !
 هو الحب ياليلاي .. أنبلُ ما انطوى
 عليه فؤاد أو تملأه خاطر
 قضيتُ ربيعَ العمر أرجو لقاءه

إلى أن تبدّت من شتأى البوادر
فكيف أذود الدفء والقرّ جائر
وكيف أخلّى النور والليل عاكر ؟ !
هم الناس ياليلاي . . خطّوا مصيرنا
فمالت بنا للهاويات المصائر
أريد . . وصوت الناس فيّ يريدني
على غير ما أهوى ، فكيف أداور
تحيّرت يا ليلاي . . لا العقل قادر
فيسحق أهوائى ، ولا القلب قادر

عرافه

جلستُ تُسائل عن ضمير الغيب سُورَ شرايها
وَتُجاذب الأيَّامَ بالإلهامِ سِتْرَ ضبابها
غابت عن الدنيا حوالها وعن أترابها
وسمت بصيرتها ورقت فوق قيد ترابها
حيرى تبسُّمٌ للدروب إذا مضت لرغابها
ويضج خافقها الصغيرُ إذا التوت بصعابها
في كفِّها من خوفها رجفٌ وفي أهدابها
يقتادها الأملُ الجميلُ لمستسرِّ طلابها
خيرٌ لها شكٌّ يغلفُ نبعها . بسرابها
ذهلتُ فأيقظها عطوفُ الصوت من أحبابها :

يا فتنتي لا ترهبي الغيبَ الخبيء ولا دجاةً
هو صنْعُ أيدينا نكاد إذا أردنا أن نراه
غرسٌ من الأفراح والآتراح والسلوى ثراه
نُلقي به في يومنا ونذوق من غدنا جنات
تهبُ الحياةُ لنا غدا من مثل ما نهب الحياة !

ألقى الظنون إلى اليقين يحذُّ من أسبابها
هذى الحياة لنا ونحن اليوم من أربابها
تحيا بنا وشبابنا الريان نبع شبابها
نخشى الغيوب؟.. وما الغيوب؟ وما ظلام حجابها؟
هي ضلَّةُ الأوهام في بيداء من أوصابها
أيا منّا غدرٌ يفيض الغيب من تسكيبها
عذباً إذا طابت وطاب الماء في أكوابها

وَيَمُرُّ مَشْرَبُهُ إِذَا لَقِيَ الْقَذَى مِنْ صَاحِبِهَا
هِيَ شَعْلَةٌ مَرْفُوعَةٌ فِي غَيْبِنَا نَسَى بِهَا
نَمَضَى إِذَا ضَاءَتْ وَنَحْبَطُ إِنْ دَجَّتْ فِي غَافِهَا

يَا فَتْنَتِي هَذَا الشَّبَابُ تَفِيضٌ بِالنِّعَمِ يَدَاهُ
دِفَاقَةٌ لَا الْيَأْسَ يَحْبِسُهَا وَلَا وَهْمَ الْغُنَاءِ
لَا تَعْبَسِي... وَدَعِي الزَّمَانَ الطَّلَقَ يَجْرِي فِي مَدَاهِ
وَدَعِي ابْتِسَامَتَكَ الطَّرِيبَ تُضَيءُ فِي هَذِي الشِّفَاهِ
تَعْنُ الْغُيُوبَ وَيَمْسَحُ الْمَاضِيَ عَنِ الدُّنْيَا أَسَاهِ

لن أنام

لا.. لن أنام وصحوتى لم تنفِ عن عيني قذاها
نفسى تبيت على شجى وأريد أعرف ما شجاها
إني مللتُ غلالة السلوى وملتني رؤاها
لا.. لن أنام وللظلام بفُرقى كفُّ أراها
سأثير شمعتي الضئيلة ثم أسهر في ضياها
وأيتُ مرتفعاً بنافذتي تؤزقني صباها
وأراقب الدرب الملىء بمصبة ثقلت خطاها
يمشون في حلق القيود وكلهم حرّاً أباهـا
يتمللون بعزمة وقدت رؤوسهم دماها
يتلمسون على الظلام طريقة ناء مداها
ويشير رائدُهم إلى القمم البعيدة في علاها :

يا رقتى . . شدوا على أقدامكم وانسوا أذاها
 هى خطوة أو خطوتان ويبلغ العانى رباها
 أنى لأنسم فى طريقَ ريحها وأرى سناها ! . .
 سأظلّ أرقبهم وأرسل صيحتى يسرى صداها :
 يا إخوتى لا تيأسوا ! . . لم يبق إلا منتهاها
 إنى لأسمع أنّة الأصفاة قد خارت قواها . .
 وأظلّ أرفع شمعى والريح تبث فى ذراها
 من ها هنا يا رقتى . . . ألقوا القيود إلى ثراها
 ها أتم الأحرار بعد مذلة فصمت عراها
 فتنفسوا ملء الصدور سعادة ورضى وجاها
 واستأنفوا السير الخيث لفاية باد هذاها

ها قد بلغت قمة قد كان صعباً مُرتقاها
 شَبُّوا على أعلى البروج لميها وارعوا لظاها

ستكون مقبسةً لمن لقيت مشاعلهم رداها
وتكون مأمنةً لمقرور على اليبداء تاها
مدوا بأيديكم لمن فى السفح يُصبح فى حماها
وتُجمعوا من حولها دنيا يعذبها طواها
تلقى على أكنافها - من غير مسألة - قراها
شعباً ومأمنةً وعزة أنفس تُعلى الجباها

ساظل مرتفقاً بنافذتى تداعبنى صباها
وأروح أرقب نجمة الأصباح تنهض من كراها
وأظل أحدها بالحنانى لتعجل فى سراها
حتى إذا طلع الصبح . . . وشاهدت نفسى ضحاها
وفتحت للنور المرقرق غرفتى . . حتى كواها
ورأيتُ مشرقةً الوضىء يضىء للدنيا خطاها
أطبقت أجفانى وقد سكتُ هناءتها قذاها

بعد عامين

في رؤواء الضحى... وقد زخر النور وحلت رداءها الأزهارُ
 وهفا في النسيم رَوْحُ عَبيدٍ شِعْ منه الخيالُ والأسرارُ
 وصنفت نحوه القلوبُ وأرخت للروى من عنانها الأفكار...
 لحث لي فجأةً فخار يقينى واسترابت في حسمها الأنتظار
 وتلاقى على فؤادى شجوى وسرور وجسارة وفرار
 ومعانٍ مستبهمات حيارى وادِّكارٌ يرده إنكار
 ثم صبح اليقين وانبتق الماضى وألقى طريقه التيار
 وتجلت في الرّيع ربيعاً أطلعتهُ على الرّبي الأقدار

يا حياتى... لا تأخذينى برّينى فليربي من الأسى أعدار
 واغفري لحظةً جهلتك فيها فبروحى من الشقاء دُوار
 سلّبتنى بصيرتى ظلمَ الليل وترّبُّ على الضحى مَوار

وسكونٌ كأنه مبرد يفرى كيانى وهوة وعثار ..
وتغيرتِ فتنى .. واستتمت بعد عامين للشباب ثمارُ
خلعت سحرها عليك الليالى ومشى فى صباك وجدُّ مثار
وتزيتت كالعروس... وفاضت بالمراح الخطى .. وخفَّ الوقار
واستدارت على جبينك ثمرٌ ناعساتٌ عهدُها لا تدار
وتبدلتِ بالسَّوادِ رداءً نفختُه ضياءها الأسحار
هادئٌ اللون ... كالغدير مساء ذوّبت فيه ظلّها الأشجارُ
قد تغيرتِ فتنى ... فاغفرى لى شرداى ... وقلبك الغفار
لا تخالى أنى نكرتُكِ عدا أوسلوا .. فما خبت لك نارُ !
لا وحيبك ! .. ما طواني ليلٌ دون ذكرى ولا علانى نهار !
قد سلكننا إلى العزاء فنونا واصطبرنا فما أفاد اضطبار
وحسبنا فيمن نلاقى غناء فعشقنا .. وطبعنا الإكبار
كم أقننا من الرمال صروحا وشهدنا صروحنا تنهار

وكشفنا قلوبنا لبغايا تتلهى بحبنا وتغار !
كلما بَصَّ من فؤادى جُرْحُ أو حوانى فى طيِّه إعصارُ
ذكرت روحى الكسيرةُ مغناك وحتت لعشها الأطيَّار
وتبلجتِ فى جنائى نُبلًا قدسيًا تهابه الأوزار
فإذا لفحة الجحيم سلام وإذا عصفتُ الرياح قوارُ
لا وحيئك ! .. ما طوانى ليلُ دون ذكرى ولا علانى نهار

منذ عامين ها هنا . . كم وقفنا تتساقى بشجوها الأبصار
وبلونا من حبنا نبضات لم تدنسْ جلالها الأفكار
خالصاتٍ لحسننا دافقاتٍ بوجود يُخيفنا فنحار
كم ركنا إلى الفرار . . . فنادانا إلى لفحة الحبيب أوار
ونظرنا إلى السفوح بشوق فدعتنا للقمّة الأخطار ! ..
منذ عامين ها هنا . . كم تراءت لصبانا على الدجى أنوار
فنفضنا قلوبنا من أساها وازدهتنا بلحنها الأوتار

وأمانِ نَوْمُهَا مَطْلَعُ الصَّبْحِ ونَمَضَى لَشَهِدِهَا نَشِيتَارَ
 لم تَكُنْ غَيْرَ أَمْنِيَاتٍ... وَلَكِنْ كَمْ أَتَيْتِ فِي ظِلِّهَا أَوَطَارَ
 وأَدِيرْتِ مِنَ الْخِيَالِ كَوْوَسَ لَمْ يَشْبُهَا مِنَ الْحَيَاةِ غُبَارَ
 وسَمَوْنَا بِسَحَرِهَا وَرَوَّاهَا لِحَيَاةٍ تَقْصُّهَا الْأَسْمَارُ !

كل هذا الوجود كيف تلاشي واستقامتِ من بعده الأعمار
 ومضينا... قد دُمِّرَتْ لَحْظَاتُ عامراتِ وطُمِرَتْ أَنْهَارُ
 وتَلَقَّتْ مِنَ الزَّمَانِ سَطُورَا حَادِثَاتٍ يَخْطُّهَا الْمَقْدَارُ !
 أين وَلَّى سرورُنَا وأَسَانَا وانْقِيَادَ لِحَبْنَا وَنَفَارُ ؟
 واتَّحَتْ مِنْ إِحْسَانِنَا خَلِجَاتُ قَدْ غَدَاها إِحْسَانُنَا الزُّخَارُ
 كل ما قد مضى فللعدم الطاغى يَرْجَى . . وَغَيْبُنَا أَسْرَارُ
 وقُصَّارَاتُنَا بَيْنَ ماضٍ وآتٍ خَلَسَتْ مِنَ الْحَيَاةِ قِصَّارُ

مِثَال

طرقتُ بابي وقد أخلدتُ للأحلام دهرًا
وانطوت نفسي وألقت دون دنيا الناس سترا
طرقتُ بابي .. ففاضَ البيتُ إشراقًا وعطرا
قد تجلَّى الحسنُ في أعطافها ليناً ويُسرا
وتناهى وجهُها الفتان إقبالاً وبشرا . . .
قالت : اصنع لي تمثالاً يرُدُّ الصخرَ سحرا
ألقي فيه من معانيك . . . وخذ ما شئتُ أجرا
قبلةً من شفقي الحُرَّى تُريك الليلَ فجرا
أو عناقا أرتبى فيه على صدرك مَكْرَى
أنتَ كلُّ الناس .. إن هَيَّأتَ لي في الناس ذكرا

قاتُ لتيك ! .. وهل أسطيع للحسناء ردًا ؟ !
 أنا إن ضاق خيالي أو غدا فكرى صلدا
 فسنالك الخلو يَفْذُو الفنَّ إلهامًا وجهدا
 ويمدُّ الأفقَ الضيقَ للإبداعِ مدًّا
 واستوى الإزميلُ في كفى يقدُّ الصخرَ قدًا
 ويسوى الخشنَ النَّاتئَ سيقانًا وخَدًا
 ووراء الكفِّ إحساس يذود الزَّيغَ ذودا
 وخيالٌ يخلع السَّحرَ على الأحجار بُردا
 نفحةٌ من عالم الروح تجلّت بعدُ خلدا
 في مثالي يهب الفنّ على الأجيال مجدا

ورفعتُ السَّترَ مزهواً وقد مُلئتُ عُجبا :
 هذه آيتي الكبرى إلى الحسناء قربى

سوف تبقى في سماء الفنِّ للأرباب ربا ! ...
 فرنتُ عَجَلَى ... وردَّتْ طرفها للباب غضبي
 وأشاحت ثم قالت : قد ملأتَ القلبَ كربا
 وسكبتَ الخليفةَ المُرَّةَ في الآمالِ سكبا
 أنا لم أسألك أوهاما تخال الأرض سُجبا
 أنا بنتُ الأرض .. لم آلُ الترابِ الحَيَّ حُبا
 قد رفعتَ الستَرَ عن زيفِ يردُّ السهلِ صعبا
 أمثالي ذاك ! لا .. ما كنتُ للأُملاكِ تِربا

لم ملأتَ الوجَّهَ والعينين أحلاما ونجوى ؟ !
 وجعلتَ الجسدَ المستوفِزَ للشِدودِ رخوا
 ورسمتَ الطَّهرَ في ثغر من التَّقييلِ أحوى
 لم أضحى خطوى المستيقظُ للمراح رَها ؟ !

واستحالت لهفة القلب إلى اللذات سلى
 أين نهد جشمته الرغبة الملحاح صحا
 وفم كالبرعم الظمان . . . بالثيران يرّوى !
 ولحاظ - قبل أن تشهد لون الراح - نشوى
 ذاك صوت الحق . . قد أضى على زيفك لغوا
 وأباطيل تريد الفنّ إيماناً وتقوى

وهوت بالمعول المشؤم للتمثال خطا
 فهورى كالقمة السماء عدوانا وظلما
 بدداً قد خلتها في موطئ الأقدام تدمى ! . .
 ومضت في ثورة هوجاء كالإعصار قدما
 توسع الأرض خطاها الحرّ تمزيقاً ولطا
 وعلى آثارها خط الدّم المسفوك رسماً :
 ها هنا منذ قليل أزهق الواقع حُلماً

وَبَكَى الْفَتَّانُ رُوحًا صَوْلَةً الْحَسَنَاءِ جَسْمًا ! ..

ومضت ... واصطفق الباب .. فألقى الباب حكاما :

عُدْ إِلَى وَحْدَتِكَ الْخُرْسَاءِ يَا مَسْكِينَ رَغْمًا

عدتُ يَا وَحْدَتِي الظَّمَايَ فَرَوَى الثَّأَرَ مَتَى

وَاتْلُ يَا لَيْلِ غِيَابَاتِي وَخُذْ يَا صَمْتُ عَنِي

وَقِفْ مَا بَيْنَ هَذَا النُّورِ يَا حُجْبِي وَيَبْنِي

دِفْنِ شَمْسَ النَّاسِ يَكُونِي .. وَيُوْذِي النُّورَ عَيْنِي

اسْكُتِي أَيْتَهَا الْأَحْلَامُ ! .. فَالْبَلْوَى تَغْنَى

أَلْفَ بَوَق .. أَلْفَ طَبْلٍ مِنْ أَغَانِيهَا بِأَذْنِي

أَوْ أَسْلُو ؟ كَيْفَ لِلتَّلَوَانِ أَنْ يَرْتَادَ سَجْنِي

وَأُمَامِي فِي الثَّرَى أَشْلَاءَ أَحْلَامِي وَفَنِي !

يَا شَذَاهَا .. أَوْ مَا زِلْتَ بِأَعْطَانِي وَرُدْنِي ؟

وَيَحْهَا غَابَتْ .. وَأَبْقَتْ سَمَّهَا فِي الْجَوْيِ يَضْنِي !

إنطلاق

في مطلع الوادي وقد ولى عن الوادي سناء
وتجاوبت في المغرب الغيمان أصداء الرعاة
ألقي على كتفيه شملته وهم إلى عصاه
ومضى ترؤد المرج عيناه ويضئ للشيء

يتسمع الصوت الذي تحلو بنبرته السهول
أصغى من التاي السلسل عند أحلام الأصيل
هي شاته سمر الحقول وفرحة الكونخ الجميل
سمراء كالنجم الوليد يمر مطرقة الليل

ومشى يغنى في خفوت نحو منعطف الطريق
يسمى ليلقاها وفي عينيه للنجوى بريق
وبشائر الأمل الجميل تهزّ خاطره الرقيق
عجبا ! لقد سكن المكان - فلا أنيس ولا رفيق

لم يلمح الشاة الحبيبة تقصد الراعى الحبيب
والريح لم تحمل إليه ثُغاءها عند الغروب
هو لا يراها بين قطعان تَزَاحُمُ في الدروب
يا لهفتا ! ماذا ترى قد عاقها ؟ ومتى تؤوب

وتردّدت في فكره المكثور أوهام
ذكر الغراب وكيف صاح على غصون البرتقال
والكلب كيف عوى ومرّغ وجهه بين التلال

يا شؤم هذا اليوم تسرى فيه رائحةُ الزوال !
هو ذا ينود بكفه عن عينه ألقَ الشعاعُ
ويدور يرقب كل راية وينظر كل قاع
ويعود يرنو خلف رعيان إلى المأوى سراع
يا ويحكم رجعوا!... وخُلفَ وحده القلقُ المراعُ

أيؤوب يسحب بعد غيبته عصاه في انكسار
أيغادر الشاة الحبيبة في الظلام بلا قرار
ويروح لم يسبقه في الدرب الطويل لها غبار؟
بنس الرواح إذن . . وما أخلى من الأنس الديار !

ومضى على وجل شرود اللب يعثر في خطاه
وقؤاده العفّ الطهور يكاد يتهم الإله

فيردّه للصبر والإيمان باقي من نهاء
ويعود يدعوها على أمل ويرفع من نداه :

يا فتنة الراعى لقد أوفى على المرج المساء
وتضرجت مُحر الغيوم بما تبقى من دُكاء
ونسأَم الليل البليل تسوق أنفاس الشتاء
والطير قد عادت وملء وطابها حبّ وماء
وفراخها فى عشها متسّمعات للقاء
للدفء والشبع الشهى وللغناء وللمكاء
والزهر فى ألفافه أغنى على نغم الرّعاء
أغنى على شط الجداول قد خطرنا على ونا
فتتبعى يا فتنة الراعى أناشيد الحدا
تحدو رواحك نحو كوخ قد أقيم على صفاء

يا فتنة الراعى لقد رانت على الأفق الغيومُ
وخبا من الشفق اللهب فعاد كالطلل القديم
وتأوتت في الغاب أرواحُ أقصتها الكلام
وسعت به الأشباح في ستر من الغسق البهيم
أشباح صرعى غالها في الغاب شيطان رجيم
لبست قناعا من دم وتسربت كفن الرميم
رقصت على زبد الجراح وقد نزن من الصميم
والريح تعزف لحنها المشنوء كالنفس الكظيم
وعالق الشجر الرهيب تحف أجواز النجوم
وظلالها من تحتها متموجات كالسديم

يا فتنة الراعى لقد طويت على الشرّ المضاب
وتلفعت بالصمت أوديةٌ تضجُّ بها الرغاب

فى كل مرأة تأججُ مقلَّةٌ ويَصِرُّ ناب
 أئى خطوتِ فلردى خطو وللندر انسياب
 سكنت على العشب الصَّلالُ تدير للفتك اللُّعاب
 متكورات كالمُشيم فما تُحسُّ ولا تُهاب
 وتربصت خلف الصخور المُمَّ عادية الذئاب
 غرثى تلوك الطينَ من سَعَبٍ وتستاف التراب
 وتعضُّ بالأذنان فى خَبَلٍ وتستجدى الشهاب
 تعوى فينتَفِضُ الكرى وتهز أستار الضباب !

أما الشَّروُدُ فأسلمت للغابة الكبرى خُطاها
 يقتادها شوق إلى المجهول ينفخ فى قواها
 كم ليلة راحت مع الراعى يُجاذبها هواها
 فالآن فلتتقدِّم على الأدغال حتى منهاها

كم ليلة وقفت أمام الغاب يعصرها الوفاء
وغماغم الدّغل العجيب يزيد فتتها الخفاء
وروائح الورق المحتر في الثرى روح اشتها
كم فوق هذى الأرض من دنيا ! وكم تحت السماء !

عجبت من الكوخ الكئيب وكيف طاب لها المقام
في منزل مستوحش خشين دعائم حطام
الزاد في أركانه حطب ومضجعه رغام
يتفلسف الراعى ويزعم في بساطته السلام !

وتقدمت بخطى المحاذر والدوار بها يمد
من رهبة الجتح المديد ونشوة الكون الجديد
ماذا وراء الستر من غيب ؟ وما خلف الحدود ؟

ليت الظلام يشف عما قد أجنّ من الوجود

وتقدمت فإذا الظلام كأنه أصبح منيرًا
ألفتهُ عيناها فمزقت الحواجب والستور
نكّرت هنالك ما وعته عن الظلام من الشرور
لا ضجة الأشباح تلقاها ولا صمت القبور !

شهدت هناك توثّب الأحياء للكون الرحيب
وعصارة الحيات يُسمع في الفصوص لها ديب
وتنفس الأرض الدفيئة وانبعاثات الطيوب
وتشقق الطين المضمخ عن وليدات الغيوب

وتملؤ العليق واللبلاب من رُوح البقاء
يسمو فيزحم منكب الدّوح الفتى إلى الفضاء

وغضارة الفطر الضعيف يكاد يغلبيه الحياء
لم يَجْفُقه الماء الرّؤى ولا تنكبه الهواء

كلُّ ينال وإن تراجت الأمانى مبتغاه
فى عالم خصب تملل من خُصوبته ثراه

وتقدمت فرأت عوالم لا يحُدُّ لها براح
تنداح فى أرض مشعّبة وآفاقٍ فساح
وتضيق حتى ما يمدُّ الطيرُ فيهنّ الجناح
وتُذبذب القلب المغامر بين ضيق وارتياح

وتجاوِبت فى الغابة الفرعاء ثُرثرة الرياح
تمزوجة الأصوات لا همسٌ يبين ولا صياح

وسرى الصفيّر مع الهدير وخالط الضحك النواح
وحشّية الأنعام بنت الغاب لم تُعرف براح!

والسيل ما أعتى توثّبَه على هام الصخور
متحدّر الأمواج منقضا بأجنحة النُور
زبد كألوية الضياء ولجة كدجى القبور
وهماهم مكبوتة كالإنم فى جوف الضمير!

خاضت إليه وزاحت بقوى موثقة قواه
القاع يجذبها قهوى ثم تنشلها ذراه
فى القاع إحساسٌ وفوق الماء إحساس سواه
بوركّت ياسيل الحياة جريت فى عنف الحياة!

حلم تقطت

في مساء خافق النيات كاب
والدجى يلقي على الأكوام سدا
سرتُ غصَّانَ بأهواء شباب
يبتنى من خيبة الآمال وترا

سرت والأضواء حيرى في الظلام
كلما ضل شعاع غام ككرب
والرؤى تحبـو إلى قومٍ نيام
وأنا وحدى إلى الآلام أحبو

ترقص الأظلال في صمتٍ مهيب
فيميد الشجو في أعماق نفسى

وتزِفُ الريح في الحنِّ رتيب
فيجيب اليأس من يومى وأمسى

وعلى الريح جناح خافق
يضرب الآفاق للعش الحبيب
ويجنيه حنين سابق
يرتقى في لحنه السارى الطروب

أبت يا طير ووافاك السلام
ووافاك الله أوهام الضلال
ولئيز شوقك أسداف الغمام
ولئذ حُبك آيات الكلال

أُبَتَّ يَاطِير... فَيَا بؤس الحياه
لغريب بات من غير رفيق
أنا ياطير عليمٌ بأسماء
وبما يلقاه من همٍ وضيق

وهوى في مسبح الديجور طيفُ
راجف الذرات موهوب الذماء
واستوى الليل وحفَّ العرشَ خوفُ
أسودُّ الجلباب منشور اللواء

إيه يا ليل العُناة الخائرينُ
أنت يا ليل رهيبٌ في سُرائكُ
تبسط الشكَّ على وجه اليقين.

ویراع الأمن من وقع خطاك

يا له صمتا إذا ملَّ السكون
زفر الريح صغيرا كالفتح
فإذا الصمت جدير مستبين
يبعث المؤود من ماضى الجروح

عذتُ بالله أيا ریح الشتاء
من معانٍ فيك تستدنى الأجل
غلب البؤسُ فأسمدُ يا رجاء
ودجا اليأس فادرك يا أمل ...

وبدا في الجُئح من أعماق نفسى
كانبثاق الحب من جوف التراب

بارقَ يسم في صفو وأنس
راقص اللحات جذلان الشباب

داعب الآلام فارتاحت إليه
ومشى للأنس فأنحلت عراه
ومضى لم يختلف شجو عليه
كلا طاف بمكروه محام

أشرقت نفسى كإشراق الوليد
رائق الصفحة مبسوط الضمير
واستفاض النور فاجتاب الوجود
يهتك الحجب فتدعوه الستور

فإذا الليل صباح وادعُ
أبيض الآفاق لألاء الندى
وإذا الصمت هدوء رائع
حالم الأنفاس مهوس الصدى

وهفا الصفو إلى لحن الرياح
فإذا اللحن كما تهوى النفوس
لا غناء ، لا ملال ، لا نواح
كغناء الفيد في تجلّى العروس

غشى القلب حين زاهر
وبدا الكون جميعا ينتظر
مسمع مصغر وطرف ناظر

وَمَنْ تَحْدُ أَشْجَاتُ الصُّورِ

وَمَشَتْ فِي مَدْرَجِ الْوَادِي ظُنُونُ
تَسْأَلُ الْوَادِي عَنْ الْغَادِي الرَّحِيمِ
لِمَنِ الشُّوقُ وَزَعَاغُ الْحُسْنِ
وَمَنْ السَّارَى عَلَى مَتْنِ الْغُيُومِ؟

أَقْبَلِي يَا رِبَّةَ الْحَسَنِ النَّبِيلِ
مَنْ حَفَايَا الْقَلْبِ لِلْأَفْقِ الرَّحِيمِ
وَابْعَثِي الْمَاضِيَ فَلِلْمَاضِي صَلِيلِ
سَمِعْتُ أَصْدَاؤَهُ سَجَنَ الْغُيُوبِ

وَبَدَتْ تَخْطُرُ فِي رَفْقِي وَدَلٌّ
كَانْشِيَابِ الْمَاءِ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ

يشفق الأفقُ عليها أن تولى
فيهاديها تهاويلَ السَّحَرِ

نَسَقَ الزَّهْرُ لعطفها وشاحا
وزها التاجُ بغراء الجبين
وسما طَلَّ إليه فاستراحا
وهفا طَلَّ إليه في الغصون

لَفَتَاتٌ مثلها يلهو شُعاعُ
عابث المرأة في كفِّ الوليدِ
التماعُ ثمَّ يخفى في التماعِ
ثمَّ يَرْتَدُّ إلى وجهه جديد

ولحاظ جمعت وَغِيًّا وسهوا
إن أردتَ الفكرَ أَوْرَمْتَ الخيالَ
في ظلال الهدب أسرار ونجوى
وعلى الألاحظ من فكرٍ ظلال.

حبذا الفتنة من هذى الشفاه
وضحوكٍ ليس يدرى كيف يعبس
من رضى النفس تجلّى في سناه
ورضى النفس مَعِينٌ ليس يُحبس

حبذا أنت من الدنيا نصيبا
أىّ دنيا من نعيمٍ وهناء !
قد غفرنا للأسى الجانى الذنوبا

فليُرى من بعدها كيف يشاء

يا قرار الروح قد طال الهيام
باهوى الموعود فى ظل الشباب
كاد يمتضى العمر عاماً بعد عام
فى منى حيرى وأحلام كذاب

آن يا سلوى أن أنسى الجراح
طال يا سلوى ما أنت جراحى
سكنت نفسى إلى ضوء الضباح
شدّ ما أخشى على ضوء صباحى !

غلبَ الوهمُ على صدق يقينى
وعشقت الحبّ فى ريق صباى

وقضيتُ العمرَ أحلاماً فكوني
في أصيلِ العمرِ تأويلِ رؤاى

كان لى فى مطلعِ العمرِ غديرُ
مائسِ الأعطافِ فى وادٍ نضيرُ
موجهُ لحنٍ على المساءِ يسيرُ
ناعسِ الأنعامِ وسنانِ الخريفِ

كم صباياتٍ زكتُ فى ضفتيه
وأمانى زهتُ حولِ رباهُ
وغرامٍ هامسٍ فى مسمعيه
خفقةُ الأمواجِ والطيرِ صداهُ

تضحك الجراتُ للماء الطروب
وترُوعُ الشطِّ همساتُ العذارى
كلما هبَّت شمالٌ أو جنوب
حملت سرا على الكتان ثارا

كلما هبَّت أنارت في الخنايا
عاصفا ينزو من الشرق المریدُ
ففضى اللحن بأهواء الصبايا
سامى الأنفاس محمولَ القيودُ

قد شهدتُ الحسنَ ألواناً عليه
فهذا للحسن خفاق الصغیرُ
ورأيتُ الحبَّ يختال لديه

فصحت الحب ... والحب سمير

ثم لفّ النهر والوادي ضباباً
وانطوى في غمرة الأيام صفوى
بين همٍ وسقامٍ واغتراب
وخطوبٍ أرقت نومي وصحوى

ذهب النهر ... فكوني أنت نهري
إن جي لم يزل غصاً جديداً
كحياة العود في الأعماق تسري
والشتاء الجهم لم يتركه عوداً

نحن نبعان حبساً صخرة
من تقاليد السنين الغابرات

فلنذُهمها ولنَقِضْ في ربوةٍ
رجة الآفاق من ماضٍ وآتٍ

تطلع الشمسُ علينا في عناقٍ
وتغيب الشمسُ عنا في سِرارٍ
ليُلبنا نحو أمانينا سِباقٍ
ولسأوانا ومفقانا النهار

في ربيعٍ من عطور وغناء
رائع الأفواف من عشب وزهرٍ
ضلٌّ عن واديه رَوَّادُ الشقاء
لا النوى تدرى... ولا الأقدار تجرى

وهوى من مغرب الأفق غمام
مكهرٌ بعضه يدفع بعضا
ينشر الليل على فجر السلام
ودُجَاه للسنا يقطر بغضا

زحمته الشهبُ فاستعدى لها
كِسْفًا تعلو وأخرى تسفلُ
تُمَوِّلُ الآفاق بما غالها
وتنثُرُ الريحُ مما تحمل !

أبصر الطيفُ دجاءً فاختفى
ورنا النور إليه فارتجفُ
وتلوى لحظة ثم اقتفى

أثر الطيف فلقته السدُن

وتبدى فى فؤادى بعد حين
شاحبَ اللّحة مَقرورَ الشعاع
واهن الخفقة من تحت الشجون
الشجون السود... ظمأى للصراع

أوصدت كلَّ سبيلٍ للهواء
فبكى النورُ إليه واضطرب
ثم سَلت روحه كَفُّ القضاء
وتلاشى ... مثلما جاء ذهب !

وتلاشى مثلما تخبو الشموع
فوق قبرٍ موحشٍ فى ليل عيد

الأماني والقوافي والدموع
في ثراه تندب الماضي السعيد

قد تركنا اليوم للشمِّ المتأه
وتركنا الغد للغيب الضنين
وتشبثنا بماضينا فتاه
في ضبابٍ من عذابٍ وشجون

يا فؤادي ليت شعري ما دهاك !
هي ذكرى .. أي ذكرى لا تغيب ؟!
قد أبيتَ الدمع في قاع الشراك
أو تجريه على طيفٍ غريب ؟ !

وأجاب القلب بالصمت المبين
ودماه من أساه تنفض
فختت الخطو في الليل الحزين
وصروح الغيم لما تنفض

ترقص الأطلال في صمت مهيب
فيמיד الشجو في أعماق نفسي
وترف الرياح في لحن رتيب
فيجيب اليأس من يومى وأمسى

غِيَابُ

الضحى في الراج مبهور الضياء
آسِنُ الصفحة من ريج وماء
كلما هم يفتح من رجاء
سبق الغيم إليه فطواه

ما لهذا الطير مقول الجناح
وغصون الدوح ملتها الرياح
ونفوس القوم قد غلَّتْ براح
للأسمى والصمت تُنقِى كرمناه!

وسكونُ جأثم في كل حَيٍّ
وحَرور لافح من كل فَيٍّ
وظلام غائم في مقلتيْ
آه لو تجليه عني مقتلته !

أيها الغائب عن هذى المروجِ
أكثر الصمتِ حوالى الضجيجِ
غيرَ همسٍ من نُفثات الأريجِ
وحنين للذى غاب شذاه

أيها الغائب لا عتب عليكِ
الشباب النضر رياتٍ لديكِ

وأمانيك جميعا في يدك
كيف تدرى أن في الدنيا غناه؟!

أنا يا دنيائى أبلتني الهموم
والليالى الصُّمُّ والوجد العظيم
واستطابت أفق الكأبي غيوم
تلتقى الأقدام فيها بالجباه

أنا يا دنيائى قلب من شجون
خفقهُ الموهون أناتُ الحزين
أثخنتُ في عزمه سودُ السنين
وتلاشت في منايه منسَاه

كل ماضيه من النعمى خلاء
والغسد المحجوب غيان الرجاء
أين يمضى خطوه . . . ماذا يشاء
وسناك الحلو لا يهدى خطاه ؟ !

امنحى ماضيه من نغماك ذكرى
فالغسد المحجوب يخفى ثمَّ أمرا
وأسى الماضى ترد الشجو صبرا
وتشدّ العزم إن كَلَّت قواه

وإذا ما مرَّ يوما فى رحابك
يرتجى الروح على أعتاب بابك

ظاغمره بحياة من شبابك
تبعثه من جديد للحياه

وإذا أبصرته ملّ الصحاب
وأغصّ الكأس بالهمّ المذاب
فامنحه عطفة... يُمنح العذاب
وتُحسن الصاب حلواً شفتاه

لا تمرى كأمانيه مراعا
واستقرى في لياليه شعاعا
إنه يجرعها ساعاً فساعا
ويجّ هذا العمر لو طال مداه !

أَنْتِ نَبِيْعٌ مِنْ صَفَاءِ وَحْشَانٍ
يَغْمُرُ الْقَوْمَ بِأَضْوَاءِ حَسَانٍ
وَهُوَ الْحَرُومُ مُعْتَدِّ جَبَانٍ
مَنْطَوِي النَّفْسِ عَلَى ذُلِّ وَجَاهٍ

شَاعِرٌ مَلَّ عَلَى الْبَابِ الزَّحَامِ
يَشْتَهِي الْحُبَّ وَيَأْبَى أَنْ يَضَامَ
فَاحْجِي الْقَوْمَ وَخُصِّي بِالسَّلَامِ
ذَلِكَ الْقَلْبُ فَلَا قَلْبَ سِوَاهِ

حَدَّثِيهِ ثُمَّ لَا تَبْغِي جَوَابَا
وَدَعِيهِ يَصْحَبُ اللَّحْنَ الْعَجَابَا

وإذا ما هزَّ الصمتُ فساباً
فأرحميه وأسأليه عن رؤاه

أسأليه واغفرى خفقَ بيانهُ
فألجلال الطهرُ أقوى من جَنانه
والحديث العذب يسرى في كيانه
فيردّ القول نشوان الشفاه

تلك يا غائب آمال كـيـارُ
في رؤى الليل وأوهام النهار
كلما صاديتُ عنها الفكرَ تار
ومضى يضرب في دنيا هواه

كم سكبتُ القلبَ آمالاً حسناً
وائباتٍ تنخطى بي الزمانا
ثم خلّتنى وأبقت لى الهوانا
وكثيلاً خَفَقَهُ رَجْعُ أساه

علّمتنى صحوّة الحلم السكون
ورضى المغلوبِ بالجدّ الطعين
فإذا ما ضجّ فى قلبى الحنين
قلتُ أسوانَ ... وفى العتبى نجاه :

أيها الغائب لا عتب عليك
الشباب النضر ريانٍ لديك
وأمانيك جميعاً فى يديك
كيف تدرى أن فى الدنيا غناه ؟

لَا أُسْتَطِيعُ

كلما أُرِّيتُ برأى ثورة الفكر الأبني
وحملتُ المعولَ المَدَّامَ في كلتا يدي
قاصداً أصنامي الكبرى وقد هانت عليّ
خَيْلَ الحُبِّ ليعني أنها تنزو إليّ
داعياتٍ للهوى ... والهوى عذبٌ شهبيّ
عائباتٍ ، هامساتٍ : إن بعضَ الرُّشدِ غيّي
فهوى المعولُ مَحْذُولاً وخليّ سَاعِدَيّ
وسمّا كَفِّيَ لَهْفَانِ يُوَارِي مُقَلَّتَيّ
وتَنَزَّتْ من فَوَادِي صرخةٍ في شَفَقَتَيّ :

إنني لا أستطيع !

إنها آمال نفسي وريياتُ خيالِ
 سُقيتَ دَوْبَ حَنِينِي فِي غِيَابَاتِ اللَّيَالِ
 وَنَمَاهَا بَيْتِي الْمَهْجُورُ مِنْ صَحْبِي وَآلِي
 سَلَوْتِي وَالْوَحْشَةُ الْخُرْسَاءُ تَرْمِي بِالْمَلَالِ
 طَافَرَاتٍ بِالْعَشَايَا عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي
 سَاخَطَاتٍ رَاضِيَاتٍ بَيْنَ صَدْدِي وَابْتِهَالِي
 مَلَقِيَاتٍ فِي مَنْعَامِي بِالْأَمَانِي الْغَوَالِي
 عَشَقْتُهَا النَّفْسُ حَتَّى سُمْتُ عَيْشَ النَّضَالِ
 كَيْفَ أَسْلَوْ؟ كَيْفَ أَنْسَى! كَيْفَ أَغْتَالِ مِثَالِي؟

إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ !

صُفْتُهَا بِيَضَاءٍ مِنْ نَسْكِ وَحَرَمَانِي وَطَهْرِي
 سَامِيَاتٍ لَمْ يَدْنَسِ نَظَرُهَا طَيْفُ شَرٍّ

لا ولا ألتقى على أسماعها غايٍ بسرٍّ
كيف حلُّ الغدْرِ في لحظَيْن ماريَعًا بقدر؟
وثوى الشرُّ رخيَّ البال في قلبٍ وثغرٍ
يا لروحى... كيف حارت بين إقدامٍ وفرٍّ
كلما همَّ إبائى وسمما الحزمُ لأمرى
أجش الماضى وأنتَ حرمةُ الذكرى بصدري:

إننى لا أستطيع !

رُؤْيَا

أَيُّهَا الطيفُ عَجِيبُ أَنْ تُنِمْ
أَيُّهَا الطيفُ غَرِيبُ أَنْ أُرَاكَ
ذَاكَ ماضٍ قَدْ نَسِينَا عَهْدَهُ
وَنَسِينَا هُدَاةَ اللَّيْلِ سُرَاكَ
قَدْ جَهَدْنَا النَّفْسَ حَتَّى أَسْمَحَتْ
وَاسْتَرَحْنَا بَعْدَ لَأْيٍ مِنْ هَوَاكَ
وَحَبَانَا اللَّيْلُ مِنْ سُلُوَانِهِ
وَأَلْفَنَّا بَعْدُ أَطْيَافًا سَوَاكَ
مَا دَعَوْنَاكَ... فَلَمْ قَدْ جِئْتَ تَسْعَى
وَلَكُمْ عَاصِيَتَ قَبْلًا مَنْ دَعَاكَ ؟

نَحْ يا ذا الطيفُ عني بسمتك
شدَّ ما أبغضُ يا طيفُ الخداغ !
هي حُسنٌ قد بلونا شره
ومن الحسن عذابٌ ومُتاعٌ
ثم عدنا ما احتقنا غيرَ صمتٍ
في وهادِ اليأس... قاتماً بعد قاع
نَحْ يا ذا الطيف عني نظرتك
قد هتكنا عن مخازيك القناع
أنتَ منها صورةٌ موسومة
بالجمال القدس والعرض المضاع !

أذنُ يا طيف... لعلِّي واهمُ
زَيْنُ اليأسُ له قولُ الضلالِ

اقْتَرِبْ ! أَنَّى أَحْسُ الْآنَ رَوْحًا
مِنْ نَقَاءِ لَمْ يَدْنُسْهُ أَتَيْتُكَ
مَقْلَتَاكَ الْيَوْمَ مَا أَصْفَاهَا !
فِيهِمَا حُبٌّ وَشَجْوٌ وَابْتِهَالٌ
وَكَلَامٌ الْيَوْمَ مَا أَعْجَبَهُ !
صَادَقَ الْبَسْمَةُ عَلَوَى الْقَالِ
أَذْنُ يَا طَيْفُ . . . فَلَسْتَ الْيَوْمَ مِنْهَا
أَنْتَ لَحْنٌ مِنْ أَغَارِيدِ الْخِيَالِ !

أَنْتَ يَا طَيْفُ لَهَيْبٌ مِنْ دَمِي
لَسْتَ يَا طَيْفُ شِعَاعًا مِنْ سَنَاهَا
أَنْتَ فَيْضٌ مِنْ حَنِينِ زَاخِرِ
نَفْسِهِ الْنَفْسُ مِنْ بَعْضِ مَنَاهَا

قد عرفتُ اليومُ أنّي لم أزلْ
رغمَ جهدِ النأيِ أشتاقُ لقاءها
أغتدى والمصرُ لفظاً في فمي
وبأعمقِ خَيٍّ من هواها
ويك يا طيف ! .. بعثَ اليومَ رؤيا
أيقظتَ نفسيَ من عذبِ رؤاها

أيقظتها في ظلامٍ سادرٍ
لم يبدده سوى ضوء هشيمي
جمره في القلب تذكى حولها
ألسناً حمرًا من الوجد المقيم
وعلى النور ... رأت عيناى هولاً
من نفاق المصر والطبع اللثيم

عشتُ حتى اليوم طفلاً ساذجاً
بإيماءً للصبح والليل البهيم
آه مما أبصرت في النور عيني !
عدتُ يا طيفَ كالشيخ الحطيم !

قد بَكَيْنَا وَأَمِنَّا أَنْ نُرَى
وَالْأَسَى فِي وَحْشَةِ الظُّلَمَاءِ يَحُلُو
حُمَةً فِي اللَّيْلِ . . . مَا أَرْوَعَهَا
تَتَلَوَى . . . مِثْلَمَا يَنْسَابُ صِلُّ
مِثْلَ لَذَعِ النَّارِ قَرَّتْ فِي فِي
وَلَهَا فِي وَجْهِ الْمَحْرُورِ غِلُّ
لَا تَحُلُّهَا بَهْرَجًا مِنْ شَاعِرٍ
يَمْلَأُ الْقَوْلَ مِنَ الزَّيْفِ وَيَغْلُو

فلقد تعلم يا طيفي أني
ما ذكرت الدمع في شعري قبلُ

أيها الليل... وكم شاهدت صرعى
أغمضت أعينهم كف دجاء
هل سمعت الدهر من أناتهم
أنه من هولها هزت حشاك
هل سمعت الدهر بثأ مثل بني
أو تملت مثل شجوى مقتلتك
إن يكن ياليل في دنياك خطي
دون خطب الناس في دنيا الهلاك
فلهم ياليل قلب دون قلبي
ولهم ياليل حس دون ذاك !

لَيْ يَالَيْلُ فَوَادِ رَاَصِدُ
يَلْمَحُ الْأَشْجَانُ فِي الْأَفْقِ الْبَعِيدُ
مِثْلُ غَارٍ سَاكِنِ الْقَيْعَانِ خَاوٍ
هَمَّةُ الرِّيحِ بِهِ قَصْفُ الرُّعُودِ
إِنْ يَكُنْ يَالَيْلُ مَا قَدْ ضَاعَ مِنْهُ
بَعْضُ زَيْفٍ مِنْ تَفَاهَاتِ الْوُجُودِ
فَعَزِيزٌ عِنْدَ رَبِّ الرُّوضِ رَوْضُ
وَعَزِيزٌ عِنْدَ رَبِّ الْعُودِ عُودُ
وَيَبْكِي الطَّيْرُ مِنْ أَعْشَاشِهِ
مَا يَبْكِي الْقَوْمُ مِنْ قَصْرِ مَسِيدِ

أذكرني

افترقنا... فاذكري الماضي ولا تنسى صداة
والحي في كل محزونٍ خيالاً من رؤاه
وإذا طالعتِ في دنياك ألوانَ الحياة
من شقاءٍ وصفاءٍ ومَهاناتٍ وجاه
فأطيلي وقفة الآسى على النبل المَهينِ
وصُباباتِ أمانٍ وجاه... واذكري

وإذا رفرفَ عصفورٌ بأجواز السحابِ
مَرَحَ الخفقة واللَّفتةِ صَدَّاحِ الإيابِ
وتدلى.. فرأى في العشِّ أظفار الخرابه
ورأى أفراخَه الزُّغْبَ دِماءَ في الترابِ

فاذرفى من دمعك الغالى على الطير الطعين
ونفوس شققها ذلُّ التراب . . . واذكرينى

وإذا ألتقت بأيديها إلى القیظ الظلالُ
واستباححت لفحة الشمس محاريبَ الجمال
ورنا الزهرُ إلى النور بأجفانٍ يقال
وتمشت فى رحاب الكون أنفاسُ الكلال
فأحسّى اللّفحَ والضیقَ مع الظلّ السجينِ
وانشدى الروح لأبناء الكلال... واذكرينى

وإذا أنت على صمتٍ من الليل الرّياخ
وتوّارت فى دياجى السحب آفاقُ الصباح
وأفاق الطيرُ من نجواه مذعورَ الجناح

وصحت من حولك الدنيا على وخز الجراح
فدعى روحك تنساب مع اللحن الحزين
وامنح الرحمة أنضاء الجراح... واذا كرينى.

وإذا ما خفق الشجور على سُمرِ الفصول
بأكياتٍ تاجها الأخضر في كف المنون.
وتبدى الأفقُ الشاحبُ مقررَ الجبين
وطفت في خلد الأحياء أحزانُ السنين.
فابغى في نفسك المراح مطوى الشجون
وجراحاتٍ أقرتها السنين... واذا كرينى.

ثورة الاسم

يا حياتي . . . أدركي العهدَ فقد طالت نواك
وهفا قلبي إلى سرٍّ وعَتَمَ مقلتك
طال ما أمضيتُ أيامي ولا نجوى سواك
وطويتُ الليلَ مهجوراً وفي صدرى هواك !
قربيني . . . ودعيني أتنفّسَ في ذراك
ودعني لحبك يسبح في صفاءٍ من رضاك
حدّثيني . . . قد أبّيتُ الرّوحَ إلّا من شذاك
وسمّيتُ القولَ إن لم تبدعه شفتاك
يا لهذا الصوتِ ريانَ بفيضٍ من نهائك
يا لألفاظك نشوى فانتات كُصباك !

قَرَّبِي رَأْسَكَ مِنِّي وَاهْمِسِي هَمْسَ الْحَبِيبِ
مَا الَّذِي قُلْتَ ؟ أَعِيدِي ذَلِكَ اللَّفْظَ الْغَرِيبَ
أَذْكُرْتَ الْإِنَّم ؟ يَا لِي مِنْ رَفِيقٍ لَا يَغِيبُ !
اسْكُتِي ... لَا تَنْطَقِي بَعْدَ ... فَمَا يَنْجِي الْهَرُوبَ .
اسْكُتِي ! قَدْ نَطَقَ الْمَاضِي بِصَوْتٍ مِنْ لَهْيَبِ .
وَتَلَوَّى فِي كَيْأَانِي ذَلِكَ السَّرُّ الرَّهِيْبِ .
أَتْرَكِينِي ... فَلَدَى الْمَاضِي مِنَ الْقَوْلِ ضُرُوبُ .
يَسْتَحْيِ صَوْتُكَ لُقْيَاهَا وَتَأْتِي أُذُنَاكَ .

يَا فَتَى الْخَانِ تَقَدَّمْ وَأَدِرْ لِي الصَّبُوتَ .
هَاتِ لِي الْكَأْسَ فِي الْكَأْسِ شِفَاءَ الذِّكْرِيَّاتِ .
يُنْسَخُ الْمَاضِي بِسُلُوَاهَا وَيَحُلُو كُلَّ آتٍ .
اسْقِينَهَا قَبْسًا تَعْنِسُو لَدَيْهِ الظَّلَامَاتِ .

تضحك النشوة فيها وتمور النزوات
ربة النسيان . ما أمست على همّ فبات
اسقنيها .. فرغت كأسى .. فلا تغفل وهات !
ها هي النشوة تحدوني إلى وادى السبات
عالم الأحلام والأوهام والحظ الموات
خدرت رأسى ... وأغقت من حوائى الترات

عجبا ! ... ماذا أرى فى كأسى الطلق المنير ؟
قطرة سوداء تطفو فى سكون وتغور
ثبتت عيني عليها ... حيثما سارت تسير
ويح عيني ! ها هي القطرة تغلى وتغور
تركت كأسى قارا وشواظا من سكير
إنه الإثم ! .. إذا ما خِلْتُه نام يشور

أيها الكأس تحطم ! . . . وتحطم يا سرور !
طاردت روحي آثامي فما يجدي انقلاط

أيهذا الروض . . . يا سلوة أنضاء القضاء
يا رجاء اليأس المكروب إن عزَّ الرجاء
قصدتك الروح حسرى بالذي جلَّ وناء
وأناك القلب لهفان إلى ظلي وماء
ومهاد يلتقي الإصباح فيها بال مساء
نعست في ساحها الأطلال واسترخى الضياء ...
وغدير عرفت أمواجه معنى الصفاء
لا سموم الصيف تُزجيه ولا ريح الشتاء ..
وغناء رفَّ فيه الصبر وانساب العزاء
لعبت من حوله الأفراح واستخذى الشقاء

آه .. لكنى أحسُّ الشرَّ يذنو من بعيدٍ
وأرى الروضَ سقيمَ السَّرحِ مَمرورَ الصَّعيدِ
كدَرتْ أمواجُ هذا النهرِ واستغنى النشيدِ
ومشى فى ضفتيه الضيقُ والهمُّ المبيدِ
لا المساء العذب فى الشطِّ ولا الصبح الوليدِ
سمعت أذنى فحجَّحَ الإثمُ فى ظل الورودِ
كامناً يقرع للفتكة أنيابَ الحفودِ
أيها الروض وداعا وعلى الأمنِ العفاء !

يا حياتى .. أوصدت سبلى وضائق بي الرِّحابِ
واتهى سعيى إلى قفرٍ من السلوى يبابِ
فيه من حرٍّ ومن قُرٍّ ومن ظفرٍ ونابِ
رصدُ الإثمِ ... ومن كالإثمِ يقتال الرغابِ !
يا حياتى ... فجَرى ينبوعٌ من خلف السرابِ

ما شفائي نعمة الثغر ولا همس الحجاب
أنا ذاك الآثم العاصي .. فكوني لي المتاب
واسمعي مني سرًّا جلّ عن سمع الصحاب
ليس يلقاه سوى قلب إلهي الإهاب
يرحم العاصي ويعفو ويرى الإثم العذاب

يا حياتي .. أنا ذنبُ الصمت والسرّ الأليم
أنا أصداء شقاء وفُتات جحيم
كلما مال بي الهَدْيُ إلى نهج قويم
ردّني للإثم والأرجاس جَلادٌ رجيم
من حنين الروح للدنيا ومن نبض الكلوم
من رفيف الشوق في الصدر ومن همس النعيم
أنا يا دنيائى في الدنيا شعاع في غيوم
فاسمعي تسكن الروح وينجذب الضباب

جَنَّةُ الْأَوْهَامِ

أَسَلَمْتُ لِلْوَحْمِ أَفْكَارِي وَوَجَدَانِي
وَذَقْتُ فِي خَدَرِ الْأَوْهَامِ سُلوَانِي
أَمْضَى مَعَ النَّاسِ لَا عَيْفَى بِشَاهِدَةٍ
مَا يَشْهَدُونَ . . . وَلَا ضُوتٌ بَأَذَانِي
دُنْيَايَ عَالَمِ أَحْلَامٍ مَهْوُومَةٍ
تَهْفُو فَتَمْسَحُ آلَامِي وَأَشْجَانِي
وَاعْتَدِي وَرَوَايَ الْبَيْضُ تَبْسُمُ لِي
وَفِي خِيَالِي تَهْوِيْمَاتٌ وَسَنَنَانُ
هَجَرْتُ مَا كَانَ مِنْ يَأْسِي وَمَوْجِدَتِي
وَصَبَغْتُ بَعْدَ مِرِيرِ الصَّبْتِ الْجَانِي
كَمْ ظَلَيْتُ أَضْرِبُ فِي دُنْيَايَ مُتَحَفِّيًا

في القفر شوق وآمالى وتحناى
يَلُوكُهُنَّ فَوَادُّ جَائِعٌ بِشَمِّ
من الأسمى وضمير منقل على
نَوَازِعُ من رِغَابِ طَالٍ ما احتبست
وطال ما لقيت من سوط سَجَانِي
يعتاقها عن طِلَابِ الرَّحْبِ مَحْبُسُهَا
فتلتظي لمَبَا من نار حرماني
خرسائه منطلقها وَخَزْ وَشارتها
وَقَعُ المَعَاوِلِ في موهون بُنْيَانِي
تململت فأصاب القلبَ حرقَهَا
وملَّ جَنُوتَهَا صَبْرِي وإذعاني
ناديت من ألى وهى فأسعدني
بجنة من خيالى ذات أفنان

أطلقتهنَّ بها يرحن في شغبٍ
ونمتُ بعد سهادى ملء أجفاني
وعفتُ صحوةً دنيا كنتُ أعشقتها
وبتُ أشرب من دَنَى ومن حاني
ساقٍ ألبقُ من دارت على يده
كأسٌ وأعرف آسٍ عند أخزاني
إذا طلبتُ عزيزَ الراح بادرني
وإن طلبتُ رخيماً اللحن غفاني
في كلِّ دققة كأسٍ ينتشى أملٌ
وبغيةٌ سُمْتُ أعماقَ نسياني
أرى بأفقى ما أخليتُ شيرته
من الرغاب وسُحبا ذات ألوان
بكل دانية منها يطالعني

مجدى وحى وأعوانى وخلانى
أروح للحب حتى يكتفى نهى
وأنهل المجد حتى يرتوى شانى
نجواى فى الليل أبكار معطرة
أبيت لى أرهاها وترعانى
أصوغ من ألتي الأطياف فتتها
وقلبها من وفاء عاطف حانى
غيت بالوم عن دنيا غلبة
تلقى القياد لذي جاه وسلطان
يذوق لذة ما أولته نعمته
بحس أبله غافى القلب سامان
تلقى القياد . . وتلقى من صرارها
إلى فم برحيق الشهد هيان

يُحِسُّ كُلَّ شَيْءٍ فِي قَرَارِهِ
يَمْتَنِعُ مِنْ سَرِيِّ الذُّوقِ فَتَانِ
مُدْلَهُ بِالنَّعِيمِ الْحَالِ يَدْرِكُهُ
بِالرُّوحِ وَالْجِسْمِ . . . بِالْبَاقِي وَبِالْقَائِي
دِمَاؤُهُ شَهْوَةٌ حَمْرَاءُ دَاقِقَةٌ
وَالرُّوحُ بِالشَّهْوَةِ الْبَيضَاءِ فِي حَانَ
أَمْضَيْتِ رَيْنَ شَبَابِي فِي الْحَيَاةِ لَقِي
أَطْفُو حَتَّى تَبْجِجَ بِالْهَمِّ مَلَانِ
أُرْعَى بَقِيَّةَ إِيمَانٍ أَعْلَاهَا
وَيَطْفِرُ الشُّكُّ مِنْ آتٍ إِلَى آتٍ
حَتَّى تَرَأَتْ لِي الْأَوْهَامَ فِي شَفَقِ
ضَافِي الْجَمَالِ عَلَى الْآفَاقِ فَتَانِ
خَفَقَتْ مِلءُ جَنَاحِي نَحْوَ سَاحَتِهِ
وَضَاعَ بَيْنَ الرُّؤْيَى شَكِّي وَإِيمَانِي

شذاء المحسول

إذا عطرك النِّفاح طاب عبيره
ورقت به الأحلام أياں يفتدى
تمثلت الأمرارُ فيك روائعا
يخفُّ لما قلبي وتقصّر عن يدي
فلا تسلي قلبي مسابح وهمه
ولا تحرميه الشوق .. فالشوق مَنُوردي
ولا تهدى صرعا أقتبُ عماده
بأشواقِ الحُرَى وحرمانِ الصِّدي
تسأني وتبهي وأخطري في غمابه
من الوهم أن يقطع دُجاها تَنَدِّي
دعيني أُرْدُ نبيجَ الشقاء وانتهى

إلى الألم المعبود في كل مقصد
وأحيا بوارٍ من عذاب محبب
تطيب به نفس الملول وتهتدى
وأمضى كما شاء الخيال محيرا
أروح بإخلافٍ وأغدو لموعده
مقلقل وجدانٍ مززعج خاطر
خفوق الأمانى بين ماء وجلد
بنعمة معشوقٍ ولوعة عاشق
وذلةٍ مملوك وعزة سيد
فما العيش إلا خفقةٌ قدسية
لطلعة مشقٍ أو لمقدمٍ مُسعد
وما عشقتك النفس إلا عُلالةً
عن الأمل المنشود في ظلمة الغد

حطيم تماشيك

يا شاعر الأحلام

أشعل قناديلك

فالليل بالأظلام

يغزو أباطيلك

يا صانع الأوهام

حطيم تماثيلك

وادخل مع الأقوام

في زحمة الدنيا

يا مشرق الأصباح

يا أفق الميم

قد أفسد الصباح
من طول ما أظلم
واستنتت الأشباح
في خاطري للعم
فأبسط إلى الراح
بالنور والسوى

ألقى بي المقدور
في قبضة الحسن
يا فرحتى بالنور
من كوة السجن
كفرحة العصفور

بالماء والنُضن
يا قلبي المقبور
قد آن أن تحيا !

قد أفسح السجان
ما أحكم الوجد
وأغفل القضبان
فلينجيك البعد
قد جاءه هيمان
يحلو له الورد
يا مهجة الظمان
ما أبعد السقيا !

قد جاءهُ مشتاق
يسئى إلى السرِّ
فحول الأطواق
للقادم النسر
فاسبق إلى الآفاق
في قدرة النسر
يا قلبي الخفاق

إياك أن تعيا 1

بادِرْ إلى الذات
يا قلبي الضاوي
واهزأ بما قد فات
من نُسكك الضاوي

واسمَع إلى أصوات

تستهض الشاوي :

ما أعجب الأموات

في جنة المأوى !

ما أعجب الثَّوَام

في عالم ساهر

بالرقص والأنعام

من مزهر ساحر

أغفوا لدى أصنام

من صنعة الخاطر

يا ضيعة الأيام

في الشوق والنجوى !

يا خاطري الوصائف
ما أمد النائم
لو غيب اليقظان
ترنيته الباسم
أو خافت الركبان
بالموكب الباسم
قد أيقظوا الحرمان

من غفلة التقوى !

يا عاشق الأضداد
من غور ماضيك
وداعى الأنبياء
من غيب آتيك

في يومك الوضاء
سِحْرٌ يناديك
فادخل مع الأحياء
في زحمة الدنيا !

إلى الليل

« قصيدة لم تتم »

بسطت دجاءك يا ليلُ
وخلف دجاءك أحلامُ
وآمالُ به تحلو
ولذاتُ وأثامُ
فما بالي ... لك الويلُ !
يحفُّ بكفى الجامُ
وفيك من الرؤى سيلُ
لمن سهرًا ومن ناموا
كأنني في الورى نفلُ !

هنا في سجنِ العالى
أقيم على الأسى وحدى
قريباً من دُنا الآلِ
بعيداً غايةَ البعدِ
هنا في مضجعِ بالي
وبين حوائطِ رُبْدِ
أهومُ تحت أغلالِ
فأدرك ذلَّةَ القيدِ
وأنسانيهِ تجوالِ

هنا يا ليلُ ينجابُ
ضبابُ العيش والناسِ
ويُفتح للأسى بابُ

ويفهقُ بالشجى كامي
ويدو الظفرُ والنابُ
من الأوهام والياس
وحولى للذجى غابُ
أخالسُ فيه أنفاسي
وصوتُ الرعبِ صخابُ

أتمقُ فيك أحلامي
وأتلوها على خوفٍ
وأجرعُ فيك أوهامي
وما فيهنَّ ما يشفي
عُلالةَ قلبي الظامي
أقطرها من الشدْفِ

فَتَقْتَلُ فِي إِقْدَامِي
وَتُرْجِسُنِي إِلَى حَتْفِي
وَلَمْ أَسْتَوْفِ أَيَّامِي

يَمُدُّ جَنَاحَهُ الْخَافِقُ
جَسُورًا مِنْ خِيَالَانِي
وَيَضْرِبُ فِي سُرى الْعَاشِقِ
إِلَى دُنْيَا السَّمَوَاتِ
فَيَجْذِبُهُ الثَّرَى الْمَائِقُ
بِخِيْطِ عَحْكَمِ غَالِي
فِيهِوْى مِنْ ذَرَى شَاهِقِ
إِلَى قَاعِ الْحَقِيقَاتِ
وَيَلْقَى جُرْحَهُ الدَّافِقُ

يُورِّقُنِي الدَّجَى الْقَانِي
بِحُمْرٍ كَالدَّجَى سُفْحِ
رَبَائِبِ أُمْسَى الْقَانِي
يَضِيقُ بَلْعُومًا ذَرْعِي
وَتَبْضُ فِيَّ أَشْجَانِي
فَيَنْكُرُ زَفَرَتِي سَمِي
وَأَدْعُو فِيكَ إِخْوَانِي
فَمَا يَصْنَعُ سِوَى دَمْعِي
وَمَا فِي الدَّمْعِ سِلْوَانِي

يَطْرُقُ الصَّمْتُ فِي أُذُنِي
رَتْبًا مَالَهُ آخِر
وَيَصْفُرُ نَابِيَ اللَّحْنِ

صَفِيرَ الْجُنْدِ السَّاهِرِ
يَغْلَفُ مَسْمَى رُذْنَى
فَيَنْفِذُ كَالرَّدَى الْجَائِرِ
وَأَغْمَضُ فِي الدَّجَى عَيْنَى
فَيِيدُو فِي الدَّجَى سَاحِرِ
تَوَسَّطَ سَامَرَ الْجَنِّ

يُذِيرُ بِكَفِّهِ سُبْحَا
حَصَاها هَامُ أَصْلَالِ
وَيُرْشِفُ وَاِدْعَا قَدْحَا
يَحْرِقُ رَاحَةَ الصَّالِي
يَضْحُجُّ كَأَنَّمَا نَبْحَا
بِهَمَمَةٍ وَأَعْوَالِ

رجاء

تعالى فتنة القلب
تعالى نشوة الصالح
أقص عليك من كربى
ومن شجوى وأتراحى

تعالى . . . فالأسى فنى
إلى الأرواح مَسْبَقُ
عميق ذلك الحزن
وما فى القسرج أعماق

تَنَامَنِي حُلْمَكَ السَّارِي
عَلَى أَضْوَاءِ مَاضِيكَ
وَهِيََا فَاشْهَدِي نَارِي
لَعَلَّ النَّارَ تَهْدِيكَ

حَيَاتِي كُلُّهَا شَفَقُ
قَصِيرِ الْعَمْرِ مَجْرُوحُ
مَضَى مَا صَمَّمَهُ أَفُقُ
وَلَا طَرَبْتُ لَهُ رُوحُ

فَوَاسِيْنِي إِذَا أَنْتِ
بِوَجْدِي فِيكَ أَنْغَامِي
وَنَادِيْنِي إِذَا حَنَنْتِ

إلى شفقتك ألامى

إذا ما عطر أنفاسك
تلاشت فيه أنفاسى
شربتُ الفَرْحَ من كأسك
وعفتُ الهمَّ فى كاسى

وما زابعد؟!

وماذا بعدُ يا قلبي !
إلى مَ نَهِيمٍ في الدربِ
وتتبع حادى الرّكَبِ
بلا قصِدٍ نُؤمِّمُه
ولا هدفٍ يُنادينا ؟ !

إلى مَ نَهِدُهُ البُلوى
ونكبت أَنَّةَ الشكوى
ونجرجُ زائفَ السلوى
وقد فارت أمانينا ؟

شباب تائه حائر
يُداري جَدّه العائر
ويهتف : هكذا الشاعر
فليت الفنّ يهجرنا
وليت الشعر يخفونا !

كفى يا قلبُ أوهاما
تقول اليومَ والعاما
أنقضى العمرَ نوما
يلا عملٍ يمجّدنا
ولا ذكرٍ يواسينا !

كفى يا قلب إغفالا
فهذا العجز قد طالا
ولسنا بعد أطفالا
وما تجدى رؤى الحالم
لذى ست وعشرينا

أعجز ذلك الخدر ؟
فما للمزم يتندر
وما للصدر ينصهر
بلهفة رُوحى الحرى
وشوق ليس يألونا ؟

ألا ياليتها تصفو
سحابُ الغنى وكفُ
فييدو الحقُّ والزيفُ
ونعرفُ بعدُ ما غدنا
نحاضرنا وماضيـنا

اِزْهَبِي

اذهبي!.. قد سئمتُ فيك النضالا
وتهاوى إلى الفناء اليقين
اذهبي... ما أريدُ بعدُ جمالا
تقتلُ تحته دِماءَ وطنٍ

قد أئمتُ الغرامَ عَزَمَ أبى
ووأدتُ الغداة حُبَّكَ حيا
ثم هلتُ الثرى بكفٍّ خلئ
ونفضتُ الترابَ عن راحتيا

اذهبي وارفعي الفجور لواء
تتداعى إليه حمزُ الرغابِ
واسرحي واملائي الفضاء عواء
يُشعلُ الجمرَ في عُروق الذئابِ !

جسدُ أنتِ ... ما لديك غناه
لنفوس مسترلاتٍ انليالِ
وقلوب قد شقها الأعياء
وجفونٍ من الظلام ثقالِ

أنتِ كُلسِ يشاقها عرييدُ
يتشهى في مقلتيه الخواء

مظلم الروح ... في الضلال عتيدُ
كلُّ فضل لدى هواه هباء

قد ألفتِ الشفاء بالراح ربي
وألفتِ الأكف بالإثم سكرى
فاجتويتِ الجفاف من شفتيها
وسئمتِ النى بكفى حيرى

قد عرفتُ الهوى الموهج حولا
ثم ولى وطاب عنك عزائى
لستُ آسى على غرامك لولا
لحظاتُ أضعتُ فيها إياي

خلتني فيك بالضراعة أجلو
جوهر النبل والمهدي والخللاق
فإذا أنت للغواية ظل
وإذا الشر منك في الأعماق

بين جنبيك . . . في دماك تفلقت
شعلة للفجور تطلب وقد
لقت مقتلتيك ثم استقرت
في شفاء ترود في الناس ورذا

أنت أدركت بالفرزة أمرى
فطرة الشر لاتصل الطريقا !

لا أرويك . . قلّ عندك قطرى
وقوافي لا تذكّي حريقاً

اذهي قد أثرت في إياي
فتمطى وحطم الأغلا
أمة أنت من صميم الإماء
اذهي . . قد أطلت فيك المقالا !

مكتبة مصر
شارع كامل صدقي "الغزالة"



Bibliotheca Alexandrina



0420820

٢٠

دار مصر للطباعة
شارع حسن مصطفى